

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية
كلية الاداب والحضارة الاسلامية
قسم التاريخ

محاضرات موجهة لطلبة السنة الثانية تاريخ عام

نظام ل.م.د.

السداسي الرابع

مقياس

تاريخ الجزائر الحديث ما بين القرنين

(16م-19م)

الاستادة: لطرش حنان

أوضاع الجزائر مطلع العصور الحديثة والغزو الأيبري للبلدان المغاربية

كانت بلاد المغرب الإسلامي قد اتحدت مع بعضها حتى القرن الثالث عشر ميلادي ، وتحت قيادة الدولة الموحدية* ، وانضمت إليها الأندلس التي كانت تعتبر من أكبر الدول الموجودة في العصر الوسيط الإسلامي ، وكان الموحدون سادة في بلادهم ، ولم تكن هناك قوة أوروبية تقف في طريق توسعاتهم¹.

عاشت الدول الأوربية هذه الفترة في تنازع و اقتتال على الأقاليم و الإقطاعيات ، لكن سرعان ما امتد نظرهم إلى الخطر الموحدوي وضرورة تشكيل الأحلاف وهو ما كان ، فنتج عنه حلف " أرغونة " و " قشتالة " الذي توج بإسقاط آخر معقل للمسلمين ألا هي غرناطة* بني الأحمر².

وما يمكن قوله عن الفوضى التي عاشها المغرب العربي مع مطلع القرن السادس عشر ، هو الوضع الحتمي ، في وقت كانت فيه ثلاث دول* تبني مجدها على أجماد الموحديين ونعني بذلك دولة بني حفص في تونس و هي تمتد من طرابلس في

الدولة الموحدية : وهي دولة دينية ، إصلاحية ، كونها للفقيه محمد بن تمرت ، المعروف بالمهدي ، في أوائل القرن السادس هجري ، بدأت دعوتها بالمغرب ، و* أرجع المؤرخون نسب ابن تمرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن طريق الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وهو ما تقوى به ابن تمرت في نشر دعوته ... أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج 10 ، ص 205.

¹ جلال يحيى : المغرب الكبير - العصور الحديثة وهجوم الاستعمار - ، دار النهضة الإسلامية ، لبنان ، 1981 ، ج 3 ، ص ، ص 3 ، 4 .

أي : رمانة ، وهذا لكثرة هذه الفاكهة في المدينة ... أنظر ياقوت *La Grenada* غرناطة : غرناطة بني النصر ، وتسمى غرناطة بني الأحمر ، وأصلها* الحموي ، معجم البلدان .

² نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ، دار الفكر الحديث ، لبنان ، ص 60 .

* الدويلات الثلاث وكما سبق الذكر ، فإننا نحاول أن نعطي ولو لمحة عن نشأة و أصل تسمية كل واحدة ، فالدولة الحفصية التي تأسست عام 1229م ، نسبة إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتائي من أصحاب ابن تمرت ويرجعه أحد النسابة - ابن نخيل - إلى عمر ابن الخطاب - ع- أما الدولة الزيانية ، أو دولة بني عبد الواد ، فتنسب إلى زيان بن ثابت وهو من بطون بني قاسم من عبد الواد ، تأسست عام 633هـ ، أما دولة بني مرين فكانت بالمغرب الأقصى ، وكانوا بداية أعزاء على الدولة المؤمنية ، دخل بهم كبيرهم عبد الحق بن محيو تل المغرب الأقصى عام 610هـ ، وقد اشتملت على بعض مناطق الأندلس الإسلامية ، وكانت عاصمتهم "فاس" .

الشرق إلى شرق المغرب الأوسط ، ودولة بني زيان بالوسط و الغرب من أرض الجزائر ، و دولة بني مرين بالمغرب الأقصى³.

وساد الدويلات الثلاث التطاحن و الشقاق سواء من الخارج أو الداخل ، فتونس الحفصية كانت تعاني من خطر الإسبان خاصة من ناحية صقلية و نابولي ، و في المغرب الأقصى كان بنو وطاس* في صراع مع السعديين* على مدينة فاس ، وهكذا فقدت المدينة مجدها و انشغلت بالفوضى الداخلية و نزاع السلالات ، وكانت الدولة الزيانية تعاني من ضعف ووهن أصابها منذ زمن بعيد ، فكان شيوخ البرابرة المستعربون في نزاع و قتال ، وكل واحد يسعى لإفناء الآخر ، فكان ميناء الجزائر ميسراً لاستيلاء الإسبان⁴.

وانتقلت الجهات العديدة في أطراف و في وسط المغرب العربي بنفسها ، مؤلفة إمارات وإقطاعات أو ملوك طوائف واهين ، فلا حدود معروفة لدولة ولا تخوماً مرسومة لإمارة ، و ذاق الأهالي ويلات الجرائم مع أن البلاد كانت مزدانة بالرجال والعلماء و الأدباء ، وكان جديراً أن يؤلف المغرب وحدة سياسية واقتصادية تجعل منه مُهاب الجانب على غرار دولة الموحدين⁵.

لقد فُتِرَ ملوك بني عبد الواد من جهة في النفوذ بالمغرب الأوسط و تجلت سلطتهم بشكل كبير في الغرب ، تاركة معظم البلاد لهجمات الإسبان ، كما انقسمت البلاد بينهم وبين بني حفص البرابرة ، فقد

أحمد توفيق المدني : حرب ثلاث مائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492 ، 1792) ، ط3 ، الجزائر ، ص 64.³

* الدولة الوطاسية : وكانت في المغرب الأقصى في مستهل القرن السادس عشر ، وبنو وطاس فرقة صغيرة من بني مرين ، كانت تتولى الوزارة ثم استولت على الحكم بالتدريج ، واشتهر منهم محمد الشيخ الذي حكم مدة 32 سنة ، توفي عان 1504م ، كانت فترة صراع مع الإسبان حتى ظهرت الأسرة السعدية .

* الدولة السعدية : وتذكر المصادر أن الأسرة السعدية جاءت من الحجاز في القرن الثامن بعد الميلاد ، وهناك من يزعم أنهم من قبيلة حليلة السعدية مرضعة الرسول ﷺ فاعتبروا من الأشراف وظهرت هذه الأسرة نتيجة توسع البرتغاليين في البلاد من جهة وعجز بني مرين من جهة أخرى ، وامتد حكمها حتى سنة 1666م .

⁴ يلماز أوزتانا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود ، مراجعة : محمد الأنصاري ، مؤسسة فيصل للتمويل ، إسطنبول ، 1988 ، ج 1 ، ص ، 230 ، 232 .

⁵ أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 65.

كنتا يتقسمان النفوذ في الجزائر، الاوالم في نصفها الشرقي والثاني في نصفها الغربي ثم مالتا الى الضعف والسقوط نتيجة لعوامل عدة بعضها داخلي والاخر خارجي منها:

النزاع الذي كان يقوم بين الدولتين من أجل السلطة والنفوذ قبل القرن 10هـ/16م والتنافس الذي كان يقوم بين أفراد الأسرة الحفصية، وكذلك بين أفراد الأسرة الزيانية مما أدى الى ضعفها وإتخاذ قواها وأدى إلى تجزئتها وتفككها وتقلص نفودها أكثر فأكثر كما أن هؤلاء المتنافسون كانوا يضطرون الى الاستعانة بالقبائل العربية كبنو عامر والذواودة واولاد سعيد والتي كانت تستغل حاجتهم اليها وضعفهم للتمرد عليهم وتقلص نفودهم الى حد كبير.

فظهرت قبائل وإمارات بأعداد هائلة ومجموعات متنقلة تحت نفوذ الأولياء ، فكانت قبائل من الونشريس ، وخضعت بلاد القبائل إلى إمارة ملك كوكو*، وسيطر الشيخ الحفصي على الجهة الواقعة بين عنابة و القل ، وسيطر الذواودة على الزاب و الحضنة و اسرة بني جلاب في تقرت وعلاهم في ورقلة جنوب الجزائر كما استولت القبائل على المناطق السهلية كبنو عامر في القطاع الوهراني والذواودة في القطاع القسنطيني⁶.

كما أن الحالة التي وصل إليها بنو زيان ؛ حيث ركن ملوكها وتخاذلوا واستندوا إلى الراحة ، فانتشرت الفوضى* بين السكان في كل ميادين الحياة ، وكان من جهة أخرى ملوك النصارى من الإسبان يتصدون هذه الأوضاع خلسة ويتربصون الظروف المواتية للقضاء على دولة الإسلام في الشمال الإفريقي⁷.

هناك من يرجع أصول الحفصيين إلى إحدى القبائل البربرية ويعتبر جددهم "فصكة ومزال أنتي" و هو الاسم الحقيقي لأبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني ، وهو * من أقدم أصحاب المهدي بن تومرت ، فقد أوى الداعية في بيته بمنطقة جبال الأطلس الأعلى عام 514هـ / 1120م ، وهو من قبيلة مصمودة .

شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ، ترجمة : محمد مزارى ، الدار التونسية للنشر ، الجزائر ، ج 2 ، ص 322⁶

نتساءل هنا إذا كانت أوضاع المغرب هذه المزرية ، فهل كانت هناك دولة تتزعم المشرق أ وتندود عنه الأعداء ؟ نعم ، إنها دولة المماليك التي تقطن إليها * الإسبان ، فخافوا من وقوع حلف أو حمية مع شمال إفريقيا ، فكانت بينهم معاهدة عام 1501م ، برأسسة بطرس مارتيردا نفيرا عن الوفد الإسباني قانصوه المملوكي .

⁷ عبد الرحمن جيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ط7 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ج3 ، ص 181 .

والذي جعل المغرب الأوسط فريسة مغرية هو ما أبرم من اتفاقيات مع البرتغال تمنع على إسبانيا التمرکز ببلاد المغرب الأقصى ، عدا مليلة التي اكتفت فعلاً باحتلالها سنة 1497م ، بعد الانتهاء من استرداد الأندلس ، وبالفعل كان لهذا التطاحن و الفوضى والانحلال أثر فعال في حفز القوة الأوربية المسيحية بممارسة العدوان على المدن والموانئ الساحلية لهذه المنطقة الحساسة من الحوض الغربي للمتوسط .⁸

الغزو الاسباني وأسبابه

لقد اكتسب البحر الأبيض المتوسط وحتى هذه الفترة من القرن الخامس عشر ، صبغة حضارية ترعرعت على ضفاف حضارات راقية أمازيغية ويونانية و فينيقية ورومانية وازدهى أكثر بالحضارة العربية الإسلامية ، وفي كونه طريقاً عالمياً للتجارة والعبور الدوليين بين أجزاء العالم القديم في العصر القديم و الوسيط مع العالم الجديد في العصر الحديث ، و في مطلع العصر الحديث* برزت على ضفافه عدة قوى سياسية تركزت بصورة خاصة في جنوب غرب أوربا وشمال إفريقيا ، وشرق المتوسط ، واشتد الصراع بينهما⁹ .

فقد تعددت الأطراف المتنافسة في مياه المتوسط ، فكانت إسبانيا تتدخل في شؤون الجزائر أو على الأقل في كامل المغرب الإسلامي لموصلة الحرب ضد المسلمين ، بدءاً من الأندلس ، و يترجم هذا الإصرار في تنفيذ وصية تركتها الملكة إيزابيلا لابنتها وزوجها ب : «...إطاعة وصايا أمنا المقدسة الكنيسة ... وأن يكونا - ابنتها وزوجها - حُماهما و المدافعين عنها ... ألا يكفا عن متابعة غزو إفريقية...»¹⁰ .

⁸ شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 68.

* العصر الحديث : وهو الفترة التي تبدأ من فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح من عام 1453م يوم 29 ماي فحول كنيستها العظمى " أيا صوفيا" إلى مسجد جامع تأكيداً لطابع الدولة الإسلامية ، عرفت بالأستانة عند رجال السياسة . فهذه هي بدايات العصر الحديث ونهاية العصر الوسيط الحافل بالأحداث العالمية .

⁹ يحي بوعزيز : مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1999 ، ص 10.

¹⁰ محمد الطيب عقاب : الأخوان عروج وخير الدين ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1985م ، ص 07.

وكان صراع بين إسبانيا وفرنسا المسيحيتين الكاثوليكيتين ضد بعضهما البعض خاصة في عهد فرانسوا الأول و شارلكان¹¹.

وفي هذه الفترة وصلت حدة الصراع ذروته بين الجارين الأعداء ، فقد أراد فرانسوا الأول ملك فرنسا أن يرشح نفسه للإمبراطورية ووقف وشارل* وجها لوجه ، ولكن الكفة آلت لهذا الأخير وجلس على كرسي الإمبراطورية واعتبر كتهديد خطير لفرنسا فقد ملك الأراضي المنخفضة وآرتو وفرانش ، وكونه وملك نابولي وميلانو فطوق فرنسا من جميع الجهات¹².

وفي غضون هذه الأثناء وتنامي الروح الصليبية الأوربية وتراجع قوة المسلمين ، اختل التوازن بين قوى الجنوب و الغربي لأوربا وشمال إفريقيا ، وتكالتب المماليك الأوربية واشتدت في شن الغارات والحروب على موانئ المغرب بصورة مستمرة ووحشية ، وساعد في هذا طرد المسلمين من الأندلس ، وتدخل هذه الهجومات في جانب القرصنة التي اتخذتها أوربا كوسيلة للكسب والغنم¹³.

وهكذا ما إن كاد القرن السادس عشر يطلع حتى كاد الإسبان البرتقيز* ، يحتلون العديد من المراسي و المدن الساحلية ، ومن دوافع هذا الغزو نجد الدافع الديني وهو يمثل العداوة التقليدية بين الإسلام والنصرانية ، ورغبة من النصارى في نشر المسيحية في ربوع المغرب الإسلامي ، وإبعاد حدود الإسلام عن اسبانيا وذلك بملاحقة المسلمين في عقر دارهم، والدافع الثاني هو الجانب الاقتصادي ، ذلك أن شبه جزيرة أيبيريا بعد الاكتشافات الجغرافية*، أصبحت في حاجة شديدة إلى أسواق جديدة

¹¹ يحي بوعزيز : المرجع السابق ، ص 11.

* الملك شارل : ولد شارل في مدينة غاد في بلجيكا في 24 شباط 1509م ، وترى في فلاندر وهو ابن فيليب الجميل و جانّ المجنونة ، يجهل الألمانية والإسبانية ، كان أشقر اللون قوي الحيوية ، كثير التفكير ، ثابتا لا يتزعزع ، ويلقب بشارلكان . كان مسيحيا مؤمناً ميالاً للحروب و الحياة العسكرية ، يرى نفسه وارث روما ، ويفكر دائما فيما يسميه الوحدة الأوربية ، وصل إلى الحكم عن طريق آل فرفرو فليزر و الملاعبات المالية والرشاوي فخببوا ظن فرانسوا الأول ، وكانوا في صف شارلكان أثناء الانتخابات ، وانتصر فرانسوا الأول في معركة بيكوك (1522).

¹² نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، ص ، ص ، 56 ، 57 .

¹³ يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 10 .

* البرتقيز : وهي من (البرتغال) تقاسموا شبه الجزيرة الأيبيرية مع الإسبان بعد أن تم طرد المسلمين من آخر معاقلمهم في الأندلس - غرناطة - في 2 جانفي 1492 م .

* إن حقيقة هذه الكشافات الجغرافية العالمية خلال القرن الخامس عشر ، كانت موجة أصالة

تسقبل تجارتها كما أنها حاولت السيطرة على المراكز التجارية والمناطق التي تتميز بغنى أقاليمها بالثروات الحيوانية والمحاصيل الزراعية كعنابه ووهران ، و الدافع الثالث هو سياسي والمتمثل في تحقيق سيادة الاسبان على الحوض الغربي للبحر المتوسط وتزعمهم للعالم المسيحي عن طريق زيادة شعبيتهم بغزوهم للعالم الإسلامي ، ولم يكن أقل خطورة من العاملين السابقين* ، فبعد انتصارات الأندلس فكر ملوك الإسبان في توسيع ملكهم إلى ما وراء المتوسط¹⁴، كذلك احتلال مواقع إستراتيجية واتخاذها منطلقاً للتوسع الاستعماري ، ورغبة من الإسبان والبرتغال خاصة في وضع حد لنشاط مسلمي الأندلس المطرودين ، ومنع بلدان المغرب من تقديم المساعدة لهم¹⁵.

الجهاد البحري

كانت مياه البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الأول للهجرة ، مسرحاً لجولات الأساطيل الإسلامية ، ولكن المسلمين لم يتمرسوا بالغزوات والمعارك البحرية إلا بعد قرنين أو ثلاثة حينما نشأة الأساطيل الكبرى في مصر وإفريقيا والأندلس ، وأخذت القوات الإسلامية تجوب مياه المتوسط شرقه وغربه ، وظهرت خلالها المغامرات البحرية الحرة و أعمال القرصنة¹⁶.

ونعني بمصطلح القرصنة* لصوصية البحر التي يقوم بها مغامرون من أجل السلب و النهب و التي تدعى بالفرنسية **Piraterie** و بين القرصنة **Course** و التي هي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية ، والغاية منها ضرب اقتصاد العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أو

* وإذا سلمنا أمرنا إلى هذه الدوافع الواضحة والتي كانت أغلبها من جانب طرف واحد ، فالمتبع للتاريخ المغاربي خلال فترة القرن الخامس عشر ، سوف يجد أن مجتمعه طبع عليه الخرافة وسيطرت على ذهنه و أفكاره ، فكان هذا في غالب الأحيان سبباً في عدم مقاومة الغزوات مثلما حدث مع حصن آسفي الذي سقط في أيدي النصارى ضناً من السكان أن دعاء الشيخ الجازولي عليه هو ما كان وراء نكباته هذه ، فهو أمر مكتوب لا يزول إلا بزوال غضب الشيخ المذكور ، صف إلى ذلك عدم وجود وحدة وتماسك بين السكان الذين شعوا بضعف الأسر الحاكمة.

¹⁴ محمد العربي الزبيرى : مدخل إلى تاريخ المغرب العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص 16.

¹⁵ بوعزيز : المرجع السابق ، ص 11 ، 12.

¹⁶ مجاهد مسعود : تاريخ الجزائر ، (د . ت) ، (د . م) ، ص 75.

* ويعرف البعض القرصنة **La course** أو **Corsaw** بالإيطالية ، على أنها غزوات و جهاد البحر ، من لا يختلط في مفهومنا أن القرصنة هي اللصوصية وقطع الطرق والأعمال الوحشية العدائية ، المناهية لكل القوانين والنظم ، لأن هذه الحرفة ظهرت في القرون الوسطى عند اليونان و الفايكينغ . وخلال مجئنا هذا عندما نطلق لفظ قرصنة ، نعني به الجهاد البحري ، محاولين أن نتفادى كل التجريحات الغربية و الروايات عن الأخوين بربروسة .

الواردة إليه ، وهذه القرصنة ذات نظم وقوانين ولها تقاليد معروفة لا تحيد الدول ولا يجيد القراصنة عنها¹⁷.

فالقرصنة إذا هي عدم الاعتراف بأي سلطة ورفض التمييز بين سفن هذه الدول أو تلك ، وهناك فرق بينها وبين الجهاد البحري الذي كان يمارسه المسلمون ، وهو القيام بمغامرة بحرية من خلالها أعطي الشرع لمجموعة من رياس البحر خاصة بممارستها ، وقد مارسها خلال القرن السادس عشر فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطا و فرسان القديس ستيفان Stephan في توسكانا ، وانطلق الإسبان شرق البحر المتوسط¹⁸.

وكانت القرصنة أثناء ذلك الاضطراب من الصنائع الراجحة ، لأنها وإن كانت مخوفة بالمخاطر من كل جانب إلا أنها تكسب صاحبها شرف الشجاعة و البسالة¹⁹.

كان المسلمون قد نشطوا في أعمال الجهاد البحري على الناحيتين ، من جهة الشرق أين كان آل عثمان أيام قوتهم و عنفوانهم يحاربون الدول الأوروبية الواقعة على ضفاف المتوسط ، فيإلى جانب أسطولها الضخم العتيد الذي كان يدوخ البحر ويحتل الجزر و الموانئ وينقل الجند و العتاد . أنشأ الجنود الأتراك أسطولا قويا ، يحارب من حارب سلطانهم ويسالم من سالمهم²⁰.

ومن ناحية الغرب ، لم تكن هذه الحرفة ممارسة جديدة ، فمنذ قرون عديدة كان المسلمون والمسيحيون يقومون بها ، فكان عدد المسيحيين كبير جداً خلال القرنين الخامس و السادس عشر ، ثم خفت وطأت القرصنة المسيحية ، وازدادت ضراوة الجهاد البحري (غير أن بروديل اعتبرها القرصنة المسلمة) في الشمال الإفريقي بعد إبعاد مسلمي الأندلس²¹.

فكانت سفن الإسبان و البرتغال تستحوذ على السفن الإسلامية وتسبي من فيها من رجال ونساء وتأخذ ما فيها من متاع ، واشتد عضد المسلمين في المغرب العربي بمن جاءهم من مهاجري

¹⁷ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص72.

¹⁸ جون بول وولف : الجزائر و أوربا (1500 ، 1830) ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص 179 ، 180.

¹⁹ عثمان العكاك : موجز التاريخ العام للجزائر ، مراجعة : أبو القاسم سعد الله ، البشير شنيقي ، سعيدوني نصر الدين ، ابراهيم نجار ، ط01 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2003 ، ص 271.

²⁰ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 73.

²¹ ن ، تبروديل " الإسبان و المغرب العربي " ، المجلة الإفريقية ، العدد الأول ، 1865 ، ص 52.

الأندلس ، العارفين بصناعة السفن و الملاحة ، فأخذت المدن الساحلية المغربية تنشئ سفن خاصة للدفاع عنها وصارت السفن تخرج من سلا ، ووهران و شرشال و الجزائر* ودلس و بجاية و جيجل إلى سواحل اسبانيا ، وكانت بمدينة وهران سفينة بركنتي BRGANTINS ، بلغ من قوتها وجرأتها أنها بلغت ميناء مالطة فأحرقتة و أخذت ما فيه من غنائم²² .

واستعمل البحارة أنواعا من السفن الصغيرة التي تتميز بالخفة و سرعة الحركة وتدعى بـ الغليطات Galioles ، والسفن المستديرة من صنف القليرة Galares ، فوصل بها البحارة الجزائريون فيما بعد إلى جزيرة ماديرة عام 1617 م ، وشواطئ إنجلترا عام 1631 م²³ .

نعت الأوربيون نشاط البحرية الجزائرية بالقرصنة ووصفوا رجالها بالقراصنة و هو إدعاء مغرض بعيد عن الحقيقة و الواقع ، لأن أول من مارس أعمال القرصنة وتوسع في تطبيقها بكل وحشية وشراسة هم الأوربيون في أعقاب الحروب الصليبية ، وبداية التراجع الإسلامي بالأندلس²⁴ فقد تطورت هذه المهنة التي عادت بالربح على الحكومة و الشعب ، فكانت تفرض الضرائب على الأسرى فيحتفظوا بهم حتى يفتدوا ، وظل الدخل طيلة ثلاث قرون منها²⁵ .

ورأت الإسبان و البرتغال وهما الدولتان اللتان احتدم الصراع بينهما من أجل احتلال المغرب الإسلامي ، لولا تدخل البابا الذي أنهى النزاع ، باقتسام النفوذ في العالم وفق معاهدة - تود سيلاس - سنة 1495 م ، وأعقب ذلك اتفاق اقتسام المغرب العربي الإسلامي وفقا لمعاهدة - فيلا فرنكا - 1509 م ، والتي نصت على منح المغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول اسبانيا على المغرب الأوسط²⁶ .

الغزو الاسباني للمغرب الاوسط

* بدأ أسطول مدينة الجزائر ينمو منذ أن دخلها بابا عروج صاحبها معه لأول مرة مراكب من جيجل ، وفي عهد خير الدين استولى على 36 .. اسبانية ضمها إلى القطع السابقة ، ولجأت الجزائر إلى القرصنة لأن الاتفاقيات مع الاسبان كانت ذات طابع ديني ، لا علاقة له بالجانب التجاري من صادرات أو واردات ... أنظر عبد القادر حلمي : مدينة الجزائر قبل 1830 ، ص 280 .

²² أحمد توفيق ، المدني : المرجع السابق ، ص 74 ، 75 .

²³ المهدي بوعبدلي ، ناصر الدين سعيدوني : الجزائر في التاريخ " العهد العثماني " ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 43 .

²⁴ رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، عن الدراسات و البحوث الإنسانية ، مصر ، 2005 ، ص 373 .

²⁵ فيليب حتي وآخرون : تاريخ العرب الحديث - مطول - ، ج 2 ، ط 4 ، 1965م ، بيروت ، ص 256 .

²⁶ بسام العسلي : خير الدين بربروس ، ط 1 ، 1980 ، دار النفائس ، بيروت ، ص 58 .

ومع بداية القرن السادس عشر ، كانت دولة البرتغال تملك مدن سبتة وطنجة وأصيلا و أزموور والصويرة و أسفي مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة مصب نهرى أم الربيع و تنسفت على المحيط الأطلسي ، ملك الإسبان صخرة باديس ، فاليس ، ومليلة وانطلقوا لتطوير الحرب ضد الجزائر .²⁷

فسقوط غرناطة وهجرة الموريسكيين ، كان الدافع الأساسي لمهاجمة سواحل شمال إفريقيا ، فمنذ 1505 م ، انطلقت الأرمادة الإسبانية للعمل كي تسبق اتصال المهاجرين بالدولة القوية و التي ذاع صيتها ونعني بذلك الدولة العثمانية .²⁸

وقد تطلب لهذه الحملة إعداد طويلا و إمكانات كبيرة ، فقد وضعت كل الإمدادات البشرية و المادية تحت تصرف ملوك الإسبان ، فقد أرسم البابا مرسوما ، يقضي في الاستمرار بدفع الضرائب الصليبية * لملوك إسبانيا وجمع القساوسة و الرهبان أموالاً ضخمة لذلك .²⁹

وكان لضعف دولة بني زيان كما سبق وأشرنا تأثير سيئ على أوضاع المغرب الأوس، فقد انقسمت على نفسها الإمارات صغيرة ، متفككة متناحرة ، وكما سبق ذكر إمارة جبل كوكو * بالقبائل ، نضيف إليها إمارة بني حفص بقسنطينة وبني جلا بتوقرت وواد ريغ ، وإمارة الثعالبة * بجزائر بني مزغنة ، وشجع الإسبان بشكل كبير هذا الانحلال و الضعف ، وذلك لتسهيل عليه مهمة غزو موانئ و مدن الساحل المتوسطي بشكل خاص و المغرب العربي بشكل عام.³⁰

وعندما صح العزم من الملك فردناند الكاثوليكي على المشروع في غزو سواحل المغرب الأوسط ، فقد تطوع الوزير الكاردنال خمينيس من ماله الخاص لتجهيز الأسطول* ، فغادر الأسطول الإسباني

²⁷ المرجع نفسه ، ص 58 ، 59.

²⁸ وليام سينسر : الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة : عبد القدر زيادة ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، ص 8.

* الضرائب الصليبية : ولقت في تلك الفترة ب : الكلوذا KLOZADDA .

²⁹ بسام العسلي : المرجع السابق ، ص 58 .

* إمارة جبل كوكو : وهي إحدى الفروع المنفصلة عن إمارة الدولة الزيانية ، وكان يحكمها رجل اسمه ابن قاضي ، وهي القسم الغربي من جبال القبائل الكبرى ، وكانت لهذه الشخصية أحداث عظيمة مع القائد المجاهد البربروسي خير الدين ، أما القسم الشرقي من تلك الجبال فكان يحكمه الأمير عبد العزيز الحفصي ، وعاصمته قلعة بني عباس وكان النزاع قائما بين الإماراتين لمدة زمنية طويلة .

* وكانت هناك مجموعة من القبائل الكبرى تعيش في ضل هذا التطاحن ، فكانت القبائل العربية منها قبائل الثعالبة وهي من العرب المعاقيل يتوطنون بالمتيجة وضواحي مدينة الجزائر ، وقبيلة الضحاك ، وعباد يتوطنون جهة حمزة - البويرة حاليا - ، وقبيلة عطاف غرب مدينة مليانة ، وسويد في هضاب وسهول السرسو إلى واد مينا ، و ملك يتوطنون البقاع التي حوالي مدينة وهران ومرساها الكبير .

³⁰ يحي ، بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر - جزائر حديثة - ، ج2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 254 ، 255 .

* كان نتيجة القوة الإسبانية اكتشافات بحرية ، فتم اكتشاف أمريكا الجنوبية و الهجرة إليها عام 1504 م ، واكتشاف البرتغال لطريق الهند عام 1498 م ، ورحلات ماجلان عام 1519 م و 1522 م .

مالقة * ، يوم 29 أوت 1505 م ، وكان يقوده دون راييموند دي قرطبة وتحت إمرته حوالي حوالي خمسة آلاف رجل ووصل الأسطول المرسى الكبير* يوم 11 سبتمبر ، وكان قد تأخر بسبب رياح معاكسة كانت في صالحه لأن المجاهدين عندما سمعوا إقلاع الأسطول من إسبانيا قد انتظروا كثيرا وملوا من متابعة الأحداث وقلت لديهم المؤمن ، فرجع أكثرهم إلى دياره³¹،

ووصل أسطول الإسبان ، ولم تكن بيد الفرقة الصغيرة المتبقية من حيلة أمام جيوش عتيده ، عندئذ اجتمع أهل المدينة ورأوا وجوب تنظيم مقاومة شعبية والدفاع عن المدينة شبراً شبراً³².

واستؤنفت المعركة من يوم الجمعة فقدفت مدفعية الحصون الإسلامية أساطيل العدو وبقتائف من الحجارة تزن أربعين رطلا واستمرت المعركة إلى الليل ، واجتمع الأهالي في دار المزوار ، واتفقوا على الانسحاب ، وحدد لهم الإسبان بعد موافقتهم على هذا الفرار مدة ثلاثة أيام واشترط عليهم ألا يأخذوا شيئاً من الزاد والمؤونة ولا من الحيوانات للجر ولا الأسلحة ، وأنصرف الإسبان لتحصين المدينة ورفعوا فوقها أعلامهم³³.

وأسلم المرسى بعدها أمره إلى بيدرو نافارو (Pedro Navaro)، بعد حصار دام شهر ونصف في 23 أكتوبر 1505 م ، بعد فترة قضائها في مهاجمة السفن البربرية و النصرانية من دون ميز على حجر باديس Perion de velez الموجود في المغرب الأقصى

احتلال وهران 1509م:

* مالقة : إحدى المدن الإسبانية .

* المرسى الكبير : كان هذا المرسى في القديم يتمتع بشهرة فائقة نظراً لموقعه الاستراتيجي ، فلقب بالمرسى الإلهي خلال الفترة الرومانية أو Portus Divinus ، احتله البرتغال عام 1415 م و أخرجوا منه عام 1437 م ، ثم أعادوا الكرة عام 1471 م ، وطردوا منه مرة أخرى عام 1477 م ، ثم هاجموا و فشلوا عام 1501 م .

³¹ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 96 .

³² أحمد توفيق ، المدني : المرجع السابق ، ص 97 .

³³ بسام ، العسلي : المرجع السابق ، ص 98 .

وافتك وهران* التي ذبح فيها أربعة آلاف ، وأسر ثمانية آلاف من الرجال وحول مسجدين إلى كنيسة* في ماي 1509 م³⁴ حيث عين الملك الاسباني فرديناند الكاردينال خمينيس قائدا على الحملة الموجهة لاحتلال مدينة وهران؛ فقام هذا الاخير باعداد الحملة التي انطلقت من ميناء قرطاجنة الاسباني في 7 ماي 1509م مكونا من 15000 جندي؛ اقلته 33 باخرة حربية و51 زورق وقد نزلت هذه القوات الى البر دون عائق خاصة بعد أن التحقت بها قوات الاسطول الاسباني الذي كان مرابطا بالمرسى الكبير وكان الجزائريون قد استعدوا لمواجهة العدو خارج أسوار المدينة واشتبكوا معهم في معارك شرسة، الا أنه في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها قام حاكم المرسى الكبير بشراء ذمة أحد اليهود الأندلس اللاجئين الى وهران يدعى شطورا وكان هذا الأخير يعمل قابضا عاما للضرائب وقد كان الاتفاق على أن يقوم هذا الاخير بفتح أحد أبواب المدينة لجنود الاسبان فدخل الاسبان على اثرها ودخلوا المدينة من كل الابواب في كل الجهات يقتلون ويحرقون وقد استمرت المقاومة حوالي خمسة أيام راح ضحيتها حوالي 4000 جزائري واسر اكثر من 8000 جزائريا ودفع الاسبانيا وقد دفع سقوط وهران الملك الزياني أبا حمو الثالث الى اعلان تبعيته الى الاسبان وتعهد لهم بان يدفع لهم جزية سنوية قدرتها ب 12000 دوقة ذهبية و 12 فرسمن جياذ الخيل و 6 من طيور الباز الجارحة، وقد تمكن الاسبان من بسط نفوذهم على سائر الغرب الجزائري كما سرعت الكثير من المدن الى اعلان تبعيتها للاسبان خوفا من بطشهم وذلك بعد أن تأكد لهم عجزها عن المقاومة منها دلس ومستغانم وشرشال.³⁵

حتلال بجاية 1510:

* وهران : وهي مدينة حصينة بناها محمد ابن أبي عون وجماعة من الأندلس ، وهناك من يرجعها إلى خزر بن صولات من قبيلة مغراوة البربرية سنة 915 م ، وأهلها موصوفون بعظم الأجساد ، والشدة ، وقد يصل الطويل من غيرهم إلى منكب أحدهم ، ويحمل الرجل منهم ستة من رجال غيرهم ، فيحمل على عاتقه رجلين وبين يديه رجلين ، وتحت إبطه رجلين منهم ، وبينها وبين تلمسان مرحلتين ومدينة وهران أبراج هي : برج الهين ، وبرج الجديد ، وبرج بني زروال ، وبرج بن زهورة ، شهدت المدينة في ظل السيطرة الزيانية و المرينية والحفصية انتعاشا واسعا لمواد العاج وجلود النعام و الحبوب و الخضر... وغيرها وكثر عليها تردد تجار مدن بيزة و البندقية و جنوة و مرسيليا و القطلانيون و زادت منازلها في هذه الفترة إلى ستة آلاف منزل وتعددت مساجدها وفنادقها ، ووصل إليها التجار من كل الأصقاع من مالي وواحات توات الصحراوية .

* وأعطوا اسما لإحدى هذه الكنائس ، فكانت تعرف بكنيسة القديس ميغيل ، وأقاموا بها أول قداس لهم ، واحتلوا هذه القرية على عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثالث الذي يلقب ببيوقامون ، وحصن الإسبان أنفسهم بالمرسى وقريته .

* وما نشير إليه أن المرسى الكبير كان خلال القرن الثاني عشر ميلادي من المراكز المهمة في دولة الموحدين إذ أنه كان مركزا للعمارة البحرية الضخمة التي أنشأها بطل المغرب و الإسلام عبد المؤمن بن علي رأس الدولة الموحدية .

³⁴ شارل ، أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 324 .

³⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص ص 104 ، 105 .

فاحتلوا بجاية* وتنس* عام 1510 م لقد وصل الاسطول الاسباني المكون من 20 سفينة تحمل 10000 مقاتل الى بجاي يوم 5 جانفي 1510 م و قد التحمت المعركة بين الطرفين بعد ان تم اخلاؤها من الاطفال والنساء ،غير أن المدافعين عن المدينة غادروها بعد أن تأكد لهم الفشل وكان أول المنسحبين الملك عبد الرحمان الحفصي وقد استشهد حوالي شهيد 4100، وبعد أن ثبت النفود الاسباني في بجاية أذنوا للاهالي للعودة إلى منازلهم فرجع الكثير منهم كما بايع الكثير منهم الأمير أبا بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين والذين كانوا يناوشون الاسبان تحت قيادته.

خضوع مدينة الجزائر سنة 1511م:

كانت مدينة الجزائر في هذه الفترة تابعة لمملكة بجاية؛ يتولى ادارتها الشيخ سالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة التي كانت تعيش في سهول متيجة ومدينة الجزائر وعندما سقطت بجاية ووهران خشي أهلها ان يصيبهم نفس المصير، لذلك أجمع اعيانها بعد تشاورهم أن يرسلوا وفد منهم الى بجاية للتفاوض مع الاسبان للوصول الى اتفاق يحفظ لهم حياتهم وفعلا وصل الوفد بعد أيام من سقوط بجاية بقليدة سالم التومي الى قائد الحملة الاسبانية بيدرونافاروحيث اتفق الطرفان على مايلي: عقد سلام بين مدينة الجزائر والاسبان؛ تعهد الجزائريين باطلاق سراح الاسرى المسيحيين؛ يسلفر وفد الى اسبانيا لعقد اتفاق نهائي مع الملك؛ يدفع الجزائريون لحاكم اسبانيا ببجاية أن يدفعوا له نفس المال الذي كانو يدفعونه للملك الحفصي ،وسافر الوفد الى اسبانيا فعليا سنة 1511م حيث اتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للاسبان لكي يقيموا عليها قلعة تحرس سفنهم التجارية وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية والتي صاروا تعرف بقلعة البنيون.

خضوع مستغانم* عام 1511 م :

لقد قام أهالي مستغانم بالاتصال بالاسبان اثر احتلال بجاية وعناية عارضين تبعيتهم لهم مقابل التزامات مالية وأدبية بناء على اتفاقية من جملة ماجاء فيها:

* بجاية : وهي مدينة عظيمة ذات علم وعلماء ، وهي مرسى عظيم في جون عظيم يمنع من كل ريح ، له مدخل ضيق في جبال شاهقة احتلها الاسبان عام 1510 م ، وحررها صالح رايس عام 1555 م .

* تنس : وهي مدينة ساحلية بناها البحريون الأندلسيون ومن معهم عام 262 هـ ، وأهلها من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان ، وينتهون عند نسب علي ابن أبي طالب ؑ وبما فواكه وقلاع ومزارع ، وهي على نهر يسمى تنانين وهذا حسب كتب الرحالة العرب ...أنظر مولاي بن حميس ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة .

* مستغانم : مدينة ساحلية بين آرزيو وتنس على نحو 15 كلم ، غرب مصب نهر الشلف ، ذات أعين وبساتين ، اشتهرت بزراعة القطن .

اعلان تبعية ميتغانم الى اسبانيا؛دفع الرسوم الى الملك الاسباني بدل الزباني؛اطلاق سراح جميع المعتقلين المسيحيين؛يلتزم أهالي المدينة بتسليم القائد الاسباني كل ما يحتجونه من حيوانات ومواد بناء بأسعار محدودة كما يلتزم أهالي المدينة بتمويل نديتي وهران والمرسى الكبير ولا يسمحون مطلقا بتعمير أو تفرغ أي سفينة الا بادن من الملكين.

كما انظمت كل من دلس وهنين* ، ولم تأت سنة 1512م حتى كانت معظم مدن الساحل الجزائري قد وقعت تحت الاحتلال الاسباني، وظلت سواحل المغرب الأوسط تحت سيطرة الإسبان إلى أن ظهر الإخوة بربروسة في مياه المتوسط و أعادوا الحق لأصحابه ، فاشتهروا بردهم للعدوان وحماية كل من هو مضطهد ، فجعلوا راية الإسلام والجهاد هي الراية العليا³⁶.

أوضاع المغرب الاوسط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية بعد الغزو الاسباني:

الأوضاع الاقتصادية:

لقد ترتب عن الغزو الاسباني للموانئ الجزائرية نتائج أدت الى تدهور احوال الدويلات التي كانت تشرف على البحر المتوسط ،حيث بعد سيطرتها على الموانئ تسببت في تضيق الخناق على السكان الذين كانوا يعتمدون على هذه الموانئ في تجارتهم الخارجية نظرا لرفضهم التعاون مع الاسبان، كما أن التجار الاجانب مثل الجنويين والبنادقة لم يعودوا يقصدون الموانئ الجزائرية بسبب خضوعها للاسبان،وقد انتهج الاسبان فور احتلالهم الموانئ على ارهاق الاهالي بالضرائب فقد فرضوا على سكان بجاية مثلا أن يقدموا اليهم 100فتيق من الشعير و50فتيق من الشعير و100 رأس من الغنم و50من البقر لذلك ترك التجار الجزائريون الموانئ فرارا من مضايقات الاسبان الامر الذي سلهم في انهيار تجارة تلك الموانئ.

أما الزراعة التي كانت تشكل النشاط الاقتصادي الرئيسي للسكان، كانت تعاني من الاضطراب، وعدم الاستقرار الناجمين عن التجزؤ و التفكك الذي آلت إليه الجزائر، والنزاع الذي كان قائما بين الوحدات السياسية

* دلس : مدينة عتيقة بين الجزائر وبجاية ، كانت في القرن 16 م يحيط بها سور متين وكان أهلها يتعاطون الصباغة لكثرة المياه والعيون و الجداول ، أما هنين فهي مرسى جديد مقصود بها بساتين وضروب وثمر مدينة صغيرة وحسنة وعامرة بالسكان احتلها الإسبان عام 1531 م إلى 1534 م .
³⁶ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص ص 13 ، 15 .

الصغيرة، التي قامت هنا وهناك، والغزو الإسباني للسواحل، و الغارات التي كانت تستهدف أقاليم المدن، و الموانئ التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني أدى كل ذلك إلى تقلص المساحات المزروعة، لهجر الفلاحين أراضيهم غير الآمنة إلى أماكن أكثر أمنا ، أو اكتفائهم بزرع مساحات قليلة لسد حاجتهم فقط. وتأثرت التجارة الداخلية، و الخارجية أيضا بالحالة الأمنية، التي اضطرت بين المدن، وفي الطرق، والأسواق، كما تأثرت بتعرض مراكز التجارة الهامة، ولا سيما مع الخارج إلى الغزو أو الاحتلال أو التهديد، فهاجر تجارها وغيرهم إلى أماكن أخرى بحثا عن الأمن، والاستقرار.

أما الصناعة التي كانت لا تزال في طورها الحرفي، فأصيبت هي الأخرى في الصميم لتعرض كثير من المدن التي كانت تحتضنها كوهان و بجاية، وعنابة، وغيرها إلى الغزو، أو التهديد به، مما جعل كثيرا من المراكز الحرفية تختفي أو تفقد أهميتها.

ولا بد من الإشارة إلى أن الجزائر استقبلت حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري الكثير من التجار، والحرفيين، والفلاحين الأندلسيين، الذين عززوا صفوف نظرائهم من الجزائريين، ولكن ذلك لم يؤد إلى انتعاش ملحوظ للاقتصاد الجزائري في أوائل القرن المذكور⁽¹⁾.

الأوضاع الاجتماعية: لقد ألت الأوضاع الاجتماعية إلى التردّي و التدهور نتيجة لعدة عوامل أهمها :

- التجزؤ الداخلي، والغزو الخارجي، اللذان نجم عنهما اضطراب الأمن ،وانعدام الاستقرار، وهجرة قسرية كبيرة ،من المدن التي أصابها الغزو الإسباني، أو التي كانت مهددة به، أو من المناطق المضطربة ،إلى المناطق الداخلية بحثا عن الأمن والاستقرار . وكانت تلك الهجرة تتم في ظروف صعبة، فقد فيها أولئك المهاجرون منازلهم وأملآهم. وهكذا شهدت بعض المدن الداخلية كتلمسان، و قسنطينة، وغيرها تضخما سكانيا، كما شهدت بعض المناطق الجبلية الوعرة كالجبال المحاذية لبجاية اكتظاظا سكانيا رغم أنها من المناطق الشحيحة الطاردة للسكان.

- تعرض قطاع المدن الذي كان أصلا ضعيفا إلى الغزو والتخريب والتقليص، وفقدان الأهمية، مما زاد في تقليص نسبة السكان الحضر المستقرين، وزاد في نسبة سكان البدو، والرحل، بالرغم من استقبال المدن الساحلية على الخصوص، وبعض المدن الداخلية عددا كبيرا من السكان الأندلسيين الذين عززوا نسبة سكان المدن.

-الوضع الاقتصادي المتردي الذي انعكس على الوضع الإجماعي للسكان بحيث كثر الفقر، وانتشرت الأمراض في صفوفهم. ومن يقرأ كتاب الوزان الموسوم بوصف إفريقيا، وكتاب إفريقيا

لمارمول الذي نقل الكثير عن الأول، وزاد عنه بعض المستجدات، يدرك أن المجتمع الجزائري كان في أغلبه مجتمعا ريفيا، يعيش في حالة البؤس، والخوف، يظهر ذلك في وصفهما لمأكل الناس و ملبسهم ومسكنهم في المدن، والقرى، والأرياف، وتأهبهم لتجنب الغزو والعدوان الذي يمكن أن يتعرضوا له (1).

الثقافية والعلمية

لقد تأثرت الحياة الثقافية بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية غير المستقرة، وكذلك بالغزو الإسباني للسواحل الجزائرية، والمناطق الداخلية المجاورة لها. وقد نجم عن كل ذلك غلق المراكز التعليمية التي كانت تحتضنها المدن المحتلة، لهجرة طلابها وعلمائها الذين نجوا من القتل إلى مراكز أخرى في الجزائر، وخارجها، بحثا عن الأمن والاستقرار، وفقدان المراكز التعليمية في المناطق المجاورة لتلك المدن المحتلة كل الأهمية، أو بعضها على الأقل، لعدم شعور العاملين فيها من علماء وطلبة بالأمن، فعرفت هي الأخرى هجرة إلى أماكن أكثر أمنا في الداخل، وحتى في خارج الجزائر.

وهكذا فإن الباحث في الحياة الثقافية في الجزائر في العقدين الأولين من القرن العاشر السابقين لاستقرار العثمانيين فيها، لا يكاد يجد سوى مراكز قليلة، احتفظت ببعض أهميتها السابقة بفضل من كان بها من العلماء والطلبة، وفضل من انضاف إليهم نتيجة الهجرة القسرية من المراكز التي احتلت مدنها، أو كانت مهددة بالاحتلال أو الغزو. فباستثناء تلمسان، وقسنطينة اللتين استقبلتا أعدادا من علماء وهران، وبجاية، وطلبتهما، وأعدادا أخرى من العلماء والطلبة الأندلسيين، لا نكاد نجد مراكز علمية هامة أخرى، اللهم بعض الزوايا التي أخذت في الانتشار في المناطق الريفية، تقدم تعليما دينيا بسيطا، بحيث يمكن القول: إن الحياة الثقافية في أوائل القرن 10 هـ / 16م كانت تعاني هي الأخرى من الظروف الصعبة التي كانت تعاني منها الجزائر في مختلف الجوانب (1).

الايوضاع السياسية: لقد ترتب عن الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية اثار بالغة الخطورة تتمثل فيما يلي:

- اخضاع الموانئ والمدن الجزائرية المحتلة لاشراف الادارة الاسبانية المباشرة الامر الذي أفقد الاسر الحاكمة والمجالس المحلية التي كانت تشرف على ادارة المدن الساحلية لسلطتها السياسية؛ فأصبحت المدن المغرب الاوسط دون قيادة سياسية تتولى قيادة الشعب مؤقتا الى حين ظهور قيادة كقوة تستند اليها مهمة انقاذ البلاد، وقد النف الشعب حول القيادات الدينية

المتمثلة في العلماء وشيوخ الطرق الصوفية الذين لعبوا دورا كبيرا في تحريض وقيادة الشعب لمقاومة الاحتلال.

- تسارع القوى الزينانية والحفصية في كل من تلمسان وبجاية على التقرب الى الاسبان معلنتا تبعيتها وخضوعها لهم بعدما تبين عجزها عن مقاومة الاحتلال ؛حيث سارع السلطان الزياني بعد سقوط وهران الى السفر الى اسبانيا مصحوبا بهدايا ثمينة معلنا خضوعه للاسبان
- لم يقتصر الخضوع للاسبان على السلطات الرسمية من الملوك والامراء ،بل امتد الى بعض القبائل العربية المحيطة بوهران التي سارعت الى اعلان خضوعها لهم خوفا من بطشها ورغبة في الانتفاع بالامتيازات التي كانوا يحلمون بها ولم يتمكنوا من تحقيقها على حساب منافسيهممن القبائل العربية الاخرى.

-كما ان احتلال الاسبان لسواحل الجزائرية انعكس سلبا على مسلمي الاندلس اذ لم تعد الموانئ الجزائرية قادرة على ارسال الامدادات اليهم والتخفيف عنهم من ظلم الاسبان؛ذلك لكون الاسبان كانوا قد فرضوا على أمراء وأعيان الموانئ الجزائرية التعهد بعدم السماح لاي سفينة بالانطلاق للاغارة على السفن المسيحية واعتبرتهم مسؤوليين عن أي خلل.

- وقد أدى الاحتلال الاسباني الى ظهور المقاومة الشعبية بقيادة الزعماء المحليين كشيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين وبعض الامراء المحليين وتحريضهم للاهالي وتنظيم ثورة ضد الاسبان ،ورغم فعالية المقاومة من حصر الاحتلال في المدن الساحلية لم تتمكن من طرد الاسبان ،الامر الذي جعل الزعماء المحليين للمدن يرون ضرورة الاستعانة بالاخوة ببربروس وذلك لما بلغهم من الانتصارات التي حققوها في عرض البحر المتوسط.

تلك كانت باختصار ملامح الأزمة المتعددة الجوانب التي كانت تعيشها الجزائر، وتعاني منها قبل بروز أوائل العثمانيين فيها، وشروعهم مع الجزائريين في العمل على إخراج البلاد من المحنة التي كانت فيها. فكيف كانت بداية أمر العثمانيين فيها ؟ ثم ماهي جهودهم ؟ وما هي نجاحاتهم التي أحرزوا عليها ؟ ذلك ما سنراه في المحاضرات التالية.

المحور الثاني: قدوم الاخوة باربروس الى المغرب الاسط

أولا- منشأ و أصل الإخوة بربروس

في هذا الوقت كان البحر المتوسط مسرحا لانتصارات أربعة إخوة من أصل أحد الجزر اليونانية ، وكانت ميزتهم الشجاعة وعرفة علوم البحر مما جعلهم مهابي الجانب في البحر من طرف القراصنة والنصارى ، وبعد دخولهم الإسلام وضعوا أنفسهم تحت خدمة سلطان إسطنبول حيث كانوا يقومون بحملات جريئة على شواطئ إسبانيا قصد مساعدة مسلمي الأندلس .³⁷

ومن الصعب تحديد أصل الإخوة ولكن ما اتفق عليه المؤرخون أن أصل الأسرة كانت تعيش في إحدى قرى البلاد اليونانية بجزيرة مدلي* أو ميتيلين ، وكان أبوهما يدعى يعقوب بن يوسف ، وكان تركيا مسلما - يعمل في الجيش التركي* .³⁸، وكان والدهم يلقب جاكوب وهو اسم لا يزال يستخدم على نطاق واسع بين الإغريق .³⁹، ويشير خير الدين في مذكراته* أن والده كان من السبايحية ، وكانت له أرض إقطاع في منطقة واراد المجاورة لسلانيك ، وهبها له السلطان محمد الفاتح ، وكان إسحاق مقيما في قلعة مدليلي أما عروج فقد ركب البحر .⁴⁰

³⁷ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 26 .

* ويختلف المؤرخون في تسمية الجزيرة بين متليلي ولسبوس بحرف السين و لسبوس بحرف الصاد ، وهي جزيرة بالأرخبيل اليوناني ، فتحها محمد الفاتح سنة 1457م ، وتقع بالضبط في السواحل الغربية لآسيا الصغرى .

* اختلف الروايات أيضا حول بربروسة ، فهناك من يقول أنها أسرة مسيحية وأبوهم كان جنديا وتزوج ابنة قديس أرثوذكسي يوناني ورث أولاده الذكور على الدين الإسلامي ، في حين نشأ بناته على المسيحية . وهناك مراجع تقول أن يعقوب بن يوسف والد عروج وخير الدين والياس وإسحاق عمل فخارا ، اختار الابن الأكبر طريق العلم فمض في دراسته الإسلامية وكان يوسف عروج بن يعقوب ، أما بقية الإخوة اختاروا البحر ميدانا لهم وهذا لضيق المعيشة ، فكان عروج هو منفتح الباب لإخوته في ركوب البحر وهو ابن العاشرة من العمر ، فجهز بعد مدة قاربا بنفسه وأصبح يتولى قيادته ، وكان خير الدين الملقب بخضر أو خزر وله معنى آخر ويعني هبة الله وهو اصغر إخوته فرأى والده أنه سوف يكون له مستقبل خاص ومزهر .

محمد الطيب ، عقاب : المرجع السابق ، 14 ، 15 .³⁸

³⁹ Fraug Digo haedo : histoire des rois d'Alger , traduction de l'espagnol : henri de grammont , Alger , 2004 , p11 .

* ويشير ديافو هايدوا في كتابه عن ملوك الجزائر أن اسم القرية التي سكن بها يعقوب و أبناؤه بمنليلي وإسمها " مولا هاملت " التي تقع في شمال الجزيرة .
* عرف الإخوة أبناء يعقوب ب بربروسة وهي تحريف لكلمة بربروس Berberouse والتي تعني اللحية الشقراء أو الصهباء التي تميل إلى الحمرة ، و الشائع دائما أن كلمة بربروسا تعني بها خير الدين وعروج وعرف خير الدين باسم الخضر وهو الحقيقي .

* مذكرات خير الدين : وهي أمر من السلطان سليمان القانوني ، أمر بها خير الدين أن يكتب كيف خرج هو وأخوه من جزيرة مدليلي ؟ وكيف تم فتح الجزائر ؟ و الغزوات التي قام بها ، وكان لخير الدين زميل اسمه المرادي ، فكان خير الدين يملي و المرادي يكتب .

⁴⁰ يلماز أوزتانا : مذكرات خير الدين ، ترجمة : محمد دراج ، جامعة مرمرة ، اسطنبول ، ص 01 . من موقع www.elchihab.com

بدأ عروج التجارة على مركبه الصغير صنعه بنفسه ، وفي إحدى خرجاته وقع أسيرا لدى فرسان القديس يوحنا* بعد معركة سقط فيها أخوه إلياس قتيلا⁴¹، وأخذوا عروج مقيدا بالأغلال⁴².

لقد حزن خير الدين كثيرا على هذا الخبر فسعى لإنقاذه بشتى الطرق ، وكان له صديق تاجر على ملة الكفر ، وكان يتاجر بين رودس و الجزر المجاورة لها واسمه " كريغوا " ، وقد أعطاه خير الدين مبلغا عسى به أن يجر أخاه وقدر بـ 18.000 أوقجة ، وكان كرعوا هذا عارفا بمدخل رودس ومخارجها ، ولكن سرعان ما أحس به الجند فأسروه وأخبرهم بمهمته معرفا الفرسان مدى قيمة عروج عند أهله ، فوضع كمجذف لسفنهم ، وقد كان يمتاز بقوة عضلية مذهلة⁴³.

عمل عروج لمدة سنتين في المجاذيف وتحت القيد ، لكنه تمكن من الفرار ، إذ ألقى بنفسه في البحر على مقربة من السواحل المصرية ، ومنها ركب البحر عائدا إلى جزيرته ، حيث أبوه وإخوته ، غير أنه كاد يسقط في الأسر مجددا⁴⁴، رأى فيه الأمير كركود أو ابن السلطان بايزيد* الرجل الشجاع و القوي ، فأكرمه وأمره على سفن للإغارة على السواحل الإيطالية ، فاختطف سفينتين تابعتين البابا ، وخاض غمار المتوسط متجها صوب الضفة الغربية منه ، خاصة جبهة الأندلس ، واختار جزيرة جربة قاعدة لنشاطه وانظم إليه أخوه خير الدين على رأس سفينة حربية مجهزة بكامل العدة⁴⁵.

ثانيا- نشاط الأخوين بالمتوسط

اختار الأخوان جزيرة جربة لبعدها عن الواقع المؤلم التي تعيشه دويلات المغرب و المتمثل في ضربات الإسبان والبرتغال والخطر المحدق بها دائما ، وبعدها أيضا عن ميادين الجهاد الحقيقي ، فكانت الملجأ و الحصن

* فرسان القديس يوحنا : كان موضعهم جزيرة رودس باليونان - فرقة قرصنة - ، كانت على صراع مع الدولة العثمانية ، لأن الفرسان كانوا يغيرون على السفن ويسلبونها ، وبعدها صارت الجزيرة معقلا للقراصنة القطنيين و المالطيين ، حاصرها آل عثمان عام 1522 م ، وفي 1530 م ضمها شارل الخامس إلى ملكه .

⁴¹ صالح عباد : الجزائر خلال العهد التركي (1514 - 1830) ، دار هومة ، الجزائر ، 2005 ، ص 44 .

⁴² عبد الرحمن ، جيلالي ، المرجع السابق ، ص 37 .

⁴³ يلماز أوزتانا : المرجع السابق ، ص 2 .

⁴⁴ بسام العسلي : المرجع السابق ، ص ص 27 ، 28 .

* السلطان بايزيد : كان قليل الأهمية مقارنة مع باقي السلاطين ، وفي عهده رفع الجند الإنكشارية إلى العرش .

⁴⁵ المرجع نفسه ، ص 28 .

الحصين لفترة من الزمن⁴⁶، امتلك خلالها القادة الشجعان بربروسا عشرة سفن عليها مائة من رجال البحر الفرسان ، وتربطهم بسطان تونس علاقة الحمية و التعاون على مجابهة العدو و اقتسام الغنائم⁴⁷.

اشتغل بربروسا* بعمارة أمير تونس بالرغم من معارضة رؤساء البحر ،واختاروا من الأجفان*، أحسنها وأصلبها على مجابهة الأمواج و الأعداء .⁴⁸ وحكم البلاد الحفصية في هذه الفترة السلطان محمد*، كما زاد من ربط علاقتهما مع الدولة العثمانية والسلطان سليم ، حيث بعث له سفينة على متنها ملاحين أكفاء وغنائم مسلوقة ، فزادها في الأعطيات وبعث إليهما رسولا يبلغهما تحية السلطان ويعلن خضوعهما تحت راية الدولة العثمانية⁴⁹.

ثالثا-استنجد اهالي المغرب الاوسط بالاخوة بربروس

استنجد أهالي بجاية: لقد اتصل بهم علماء وأعيان بجاسة وحتى أمير قسنطينة أبو بكر الحفصس لنجدتهم ،فعمل الأخوان على استرجاع مدينة بجاية التي ضاعت قبل سنتين من وصلهما إلى جربة ، وذلك بالدعم من السلطان تونس لأنها تعد من أملاكه الخاصة ،وبعد حصار المدينة فشلا في استرجاعها وعاد الأسطول إلى تونس بعد أن فقدوا قسما من سفنه في معركة قاسية مع البحار دوريا*⁵⁰، وترجع أسباب الهزيمة أو الهزائم التي مني بها الإخوة بربروسة في بجاية إلى سوء الأحوال الجوية ،ووصول المدد الإسباني في الوقت المناسب

⁴⁶ بوعزيز : المختصر في تاريخ الجزائر ، ج 2 ، ص 254 .

⁴⁷ كورين شوفاليه ، المرجع السابق ، ص 26 .

* نجد أن عروج وخلال إقامته بجربة قام بسلسلة من الحملات الجريئة فاكتسب بها شهرة عظيمة في البحر المتوسط ، غضافة إلى ذلك أتمك في نقل المورسكيين وهم مهاجرو الأندلس إلى الموانئ وشواطئ الشمال الإفريقي بعد إبعادهم عن غرناطة .

* الأجفان : جمع مفردة جفن ، ومعناه السفن والمراكب البحرية ، وعرف ميناء الجزائر بالجفنة .

⁴⁸ مجهول ، غزوات عروج وخير الدين ، تصحيح وتعليق : نور الدين عبد القادر ، مكتبة رودسي بن قدور ، الجزائر ، 1934 ، ص 13 ، 14 .

* عرف السلطان محمد و الذي خلف أباه محمد بن الحسن وكان مشغلا باللهو و الخمور مهملا لأمر الملك والرعية وتركوا خمسة وأربعين ذكرا خلفه منهم ابنه الحسن الذي قتل جميع إخوته ، وأبقى على الرشيد و عبد المؤمن ، واشتغل هو الآخر مثل أبيه في اللهو والخمور .

* كانت حدود الدولة الحفصية حتى مدينة قسنطينة والتي كان رأسها أبو بكر الحفصي هذا الأخير الذي طلب من الأشقرين ونعني عروجوخير الدين بينما كانا في حلق الواد أخذ مدينة بجاية .

⁴⁹ محمود شاكر : المرجع السابق ، ص 104 .

* القائد أندري دوريا : **Andri Dora** ، من قياد البحر الإيطاليين ، كانت له أعمال عظيمة وهو سليل بيت من أكبر بيوت مدينة جنوة ،ورث عن أبيه فن الحرب وحب المغامرة ،وعشق الأمواج ، خدم ملك فرنسا فرانسوا الأول ثم شارلكان .

⁵⁰ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص ص 26 ، 27 .

، وكان من جملة دواعي تفتن الإسبان وكثرة التحركات في المتوسط خلال هذه الفترة ، هو استيلاء بربوسة على سفينتين من بلاد جنوة*، واعتبر هذا العمل سابقة خطيرة وأنه جزء من أعمال القرصنة البحرية .⁵¹

ومن جهة أخرى قلة المؤونة والعتاد وحصانة المدينة ، ورغبة السكان* في التوجه نحو حقولهم و مزارعهم لممارسة حرفهم وجني محاصيلهم وتأمين أقواتهم ، ومنه ولَوُ * ظهورهم نحو فكرة الجهاد وصدوا عن مساعدة بربوسة.⁵² وما زاد في تأزم الوضع هو الحصار البحري الذي تعرض له عروج لمدة أربعة وعشرين يوماً حتى نفذ البارود ، وقلة المؤن ، وفي ذلك أن السلطان الحفصي رفض إعطاءهم المدد و المساعدة⁵³، فلم تحرر المدينة في المرتين الأوليين ، كذلك حدثت للبطل التركي جراحة في الحرب فأصيبت ذراعه وتمادي في صفره وهو على هذه الحال ، فأقام مع خير الدين بتونس - جربة وحلق الواد - حتى برئ جرحه وخرجوا لمواجهة النصارى وما معهم من قوة .⁵⁴

وكان عام 1514 م عاما لم تنجح فيه محاولة الإخوة من تحرير بجاية وبعدها 1515 م في فصل الربيع مثل سابقتها ، وفي المرة الأخيرة ومع مساعدة الأمير عبد العزيز* اقتربا من النصر⁵⁵، وانظم إلى عروج في هذه المدة أفراد عديدون من بين الأتراك والمرتدين عن المسيحية على السواء ، وتراوح عدد سفنه عام 1510 م ، بين 10 و 12 سفينة وأطلق عليه رجاله بابا عروج ، أي الأب

* جنوة : وهي مدينة ذات طابع تجاري منذ القدم من ايطاليا،وعناصرها يلقبون بالجنويز .

⁵¹ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص ص 36 ، 37 .

* بني العباس : قصر على بعد 225 كلم من بشار ، وهي مجموعة قبائل متحدة ، متصلة بسفح جبل صغير على سفر الوادي ، بما فاكهة وخضروات وبساتين ، وبإحدى قراها كان الشيخ سيدي عبد الله وهو من المرابطين ، وكان من أنصار الترك في مواجهة السعديين في عصر مولاي زيدان ، استولى على سجلماسة الصفيرية عام 1611 م .

* سبق أن ذكرنا أن العرب ولو عن الجهاد ، فحسب رأينا هو قلة التوجه الديني أو كثرة الطرقية ، التي توجهت في هذه الفترة إلى المصالح الخاصة ، خاصة بعد التفوق بين الحفصيين و الزينيين و السعديين و الصراع بين القبائل المتفرقة ، وانتشار طابع الخرافة على العباد أكثر من المذهب المالكي .

⁵² عثمان ، الكعك : المرجع السابق ، ص ص 271 ، 272 .

⁵³ المرجع نفسه ، ص 272 .

⁵⁴ مجهول : المصدر السابق ، ص ص 40 ، 41 .

* عبد العزيز : الأمير الحفصي و المكلف بجبهة القبائل من طرف السلطان الحفصي ، كان ملكا على قلعة بني عباس وينتمي إلى أسرة ذات نفوذ في البلاد القبائلية الصغرى ، تحالف مع ابن القاضي و الأتراك و قدم عوناً كبيراً لعروج خلال محاولاته في الوصول إلى بجاية ، قضى عليه صالح رايس عام 1559 م عندما زادت قوته ونفوذه في البلاد .

⁵⁵ عثمان الكعك : المرجع السابق ، ص ص 272 ، 273 .

عروج وذلك كعلامة على احترامهم له واعتمادهم على زعامته.⁵⁶ وبعد التعاون مع السلطان سليم الأول و المدد الذي أرسله و المقدر بأربعة عشر سفينة ، ومحاولاته في البر بدل البحر ، ومساعدات ابن القاضي * الذي حاصر الإسبان من جهة البحر تمكن عروج من استرجاع مدينة بجاية .⁵⁷

وبعد ذلك رسي الأخوان بمدينة جيجل لقضاء بعض مآربهما ، وكان إبان تلك الفترة تحت سيطرت الجنويز* منذ عام 1260 م ، فالتمس سكان المدينة المساعدة منهما⁵⁸ ، وتمكنا من استعادتها عام 1514 م ، واتخاذها قاعدة لهم بدل حلق الواد ، كون المدينة قريبة من الحوض الغربي للبحر المتوسط من جهة ، والتخلص من مضايقات السلطان الحفصي من جهة أخرى⁵⁹ .

وفي فترة كان عروج* قد باشر تحري سواحل المغرب ، توفي* الملك الإسباني فردناند ، وكان الإخوة استقروا بميناء جيجل الصغير الواقع على الساحل القبائلي إلى الشرق من مدينة الجزائر .

استنجد أهالي مدينة الجزائر :

انتقل وفد من سكان مدينة الجزائر الى جيجل عام 1516م لتقديم شكوى لعروج وا أن يطلبوا مساعدتهم ليتغلبوا على الوحدة الإسبانية المتمركزة في صخرة البنيون ويضعوا حدا للضريبة السنوية المفروضة عليهم⁶⁰ ، بعد أن تكونت سمعة جيدة وحسنة للأخوة في نفوس سكان الجزائر ، خاصة أنهم سئموا سياسة

⁵⁶ وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص 31 .

* ابن القاضي : واسمه الكامل ؛ أبو العباس أحمد بن القاضي العبريني من فقهاء وقضاة الجزائر ، كان تولى إمارة بجاية على عهد الحفصيين ، ثم استقر بالقبائل بنواحي جرجرة ، وأسس إمارة جبل كوكو عام 1511 م .

⁵⁷ عثمان ، الكعك : المرجع السابق ، ص 272 .

* احتل الجنويز ميناء جرجرة - جيجل - سنة 658هـ / 1260م ، وجعلوها مركزا تجاريا لهم ، وكان من أعظمها في ذلك الوقت ، وكان القائد أندري دوريا هو المشرف على هذا الميناء .

⁵⁸ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 272 .

⁵⁹ عبد القادر حللمي : المرجع السابق ، ص 35 .

* تكاد الروايات التاريخية تجمع وحسب ما استطلعناه من خلال دراستنا لهذا الجزء من الموضوع أن الحفصيين بتونس كانوا يخشون من عروج كثيرا حفيضة منهم أنه سوف يزداد قوة وسوف تجتمع حوله الأمة ، فيصبح هو الأمر و الناهي في جزء المتوسط الشرقي ، فلهذا نجد قلت المساعدات والمدد عند محاولته تحرير بجاية أو جيجل لولا تدخل السلطان العثماني سليم ياوز - سليم الأول - .

* نجد أن أمير قلعة بني عباس عبد العزيز قد بذل جهودا كبيرة لفك الحلف الموجود بين ابن القاضي وعروج ، وقد نجح في ذلك في 23 جانفي 1516 م ، يوم وفاة فردناند .

⁶⁰ وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص 31 ، 32 .

الثعالبة* ، فبعث أغلب السكان رسلا إلى مدينة جيجل التي كانت بيد الأخوان يطلبون حمايتهم كما سبق وأشرنا⁶¹. وأدركت حمية الإسلام عروج لما وصلته أنباء الجزائر ، واستخار الله تعالى في الذهاب إليهم ، فأوصى تلك الناحية أي جيجل وسكانها أن يلحق به أخوه خير الدين عند قدومه ويمد له المساعدة إن احتاج إليه ، ولما وصل خير الدين إلى جيجل قادنا من تونس ، أبلغه سكانها ما تركه عروج من وصايا ، فأرسل له مائتين وثمانين جفناً⁶².

وفي هذه الفترة وصل الأخ الأكبر للإخوة عروج وخير الدين ، إنه إسحاق ، فقد كان مقيما بإقليم الروم ، ولم يسمح له خير الدين بالرجوع إلى هناك ، فأكرمه وفرح كثيرا لقدمه وساروا في أساطيل ضخمة يغزون النصارى ويدعون وجودهم بالتوسط⁶³.

دخل عروج مدينة الجزائر على متن سفينتين تحملان ألف تركي ، وهي أول قوة تدخل الجزائر من طرف الأتراك ، ثم دخل خير الدين ومعه 280 جندي ومعدات حربية حديثة ، ولكن هذا الوضع أساء سالم التومي وتدمر ، فحاول مع بعض أعوانه التآمر ضدهم واعتراض فتحاتهم⁶⁴.

وتختلف المصادر في ذكر القوة التي أتى بها عروج إلى الجزائر ، فهناك من يقول حسب ما ذكر هايدوا سابقا ، وهناك من يقول أنه أخضر 800 تركي مسلحين بالبنادق و 3000 من الموريين* مسلحين بالمدفعية و البارود والمقونة وأدوات الحرب ، وجاء عروج عن طريق البر ، أما البقية المكونة من 2000 جندي فكان هدفهم الغنائم والكسب فقط ، وأشار آخر بأن عروج قدم على متن سفينتين حربيتين ولحق به 280 تركي وأربع سفن صغيرة و 15 قطعة مدفعية كبيرة ، وقدم خير الدين على متن أربع سفن صغيرة عليها جنود كثير وتحت قيادة أخيه إسحاق لنجدة عروج⁶⁵ ، ولكن عروج أبي أن يدخل الجزائر إلا بعد أن يسوي بعض حساباته مع أحد قادة شرشال ، وكان يسمة قار حسن ، وكانت المدينة من أروع المدن المتوسطية ، إذ بها ميناء

* الثعالبة : من قبائل المعقل الهلالية ، كانوا عاجزين عن الترحال فاستقروا بمنطقة التل ، وتغلب عليهم قبيلة توجين ، أيام كانوا بالتيطري ثم ملكيش ، وولاية الجزائر ، ثم انتقلوا إلى متيجة أواخر القرن 7 م ، وأدوا المغارم للحفصيين و المرينيين ، وكان رأسهم أول الأمر بسام بن ثعلب بن علي ومر به ابن تمرت فأكرمه ، ثم أجبرهم بنو زيان على الدخول تحت طاعتهم... أنظر مبارك الملي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج2 ، ص 370 .

⁶¹ Diego heado : OPCIT , p17 .

⁶² مجهول: المصدر السابق ، ص 40 .

⁶³ المصدر نفسه، ص ص 40 ، 41 .

⁶⁴ Diego haedo : OPCIT , p17 .

* الموريين : نسبة إلى المور ، وهم سكان مغربيين يقيمون بجبال جيجل .

⁶⁵ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 28 .

* نال عروج تأييد سكان الجزائر ، إضافة إلى تأييد قبيلة بني عباس... أنظر وليام ، سبنسر : الجزائر في عهد رياس البحر ، ص 31 .

قابل للتوسع ، وبأقل التكاليف ، وتحتوي حيالها على مواد كثيرة لبناء السفن البحرية ، وأخيرا فهو أقرب الطرق إلى جزر البليار وإسبانيا ، بحيث قطع هذه المسافة خلال 20 ساعة ، وهزم عروج خصمه وطرده من البلاد⁶⁶.

ومن أهم الأعمال التي قام به عروج حينما تواجد بالجزائر* ، الهجوم على النصارى و التكتيف منها ، وشدد الحصار على حصن الصخرة* ، وقطع عليه المياه و المؤونة⁶⁷ ، وكان النصارى إذ ذلك قد شددوا على أهل المدينة ورموهم بالمدافع و المكاحل* ، فأجمع عليهم عروج بجيش قوامه ثلاث مائة وعشرين جفنا وخمسة عشر ألف مقاتل⁶⁸.

واجتمع أهل العقد والحل ، وأسندوا لقب أمير الجهاد لعروج وكان هذا عام 1516 م ، وكان تعيينه هذا حاجزا ومانعا من وقوع الجزائر في يدي الإسبان مرة أخرى⁶⁹ ، لكن سكان المدينة غير أنّ سليم التومي قد رأى أن حكمه قد ذهب فانسحب إلى حماية قبيلته في متيجة ، وكان هذا بمثابة مؤامرة لإخراج الزائرين الذين أصبحوا غير مرغوب فيهم ، فتعاون ضدهم شيخ الثعالبة و الإسبان⁷⁰ ، بعد أن سيطر عروج على المدينة ومينائها أمر بصك العملة وتحصين القصبه ، ونصب فيها مدفعية صغيرة ، ووضع عليها حامية صغيرة من الأتراك ، كما أمر أهالي جيجل بالعودة إلى بلادهم⁷¹ ، بعد هذه الإجراءات نجد أن سالم التومي* قد لجأ إلى النصارى الإسبان في مدينة وهران⁷² ، ويبدو أن سالم هذا كان يحضى بشعبية وحب الجماهير فقد التف حوله العامة ، و السبب في

⁶⁶ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 29 .

* عند وصول عروج إلى الجزائر و في بداية تأسيس لحكومة الدولة الجديدة ، أزاح أبناء الأوجاق و السكان الأصليين من مناصب الحكومة ، وهم ما عرف بـ " قلري " ، أو ما عرف بالكراغلة ، وأراد دولة من رعاياه ...أنظر وليام ، سنسر : المرجع السابق ، ص 30 .

* تشير المراجع الأجنبية و على رأسها الثلاثون سنة لقيام دولة مدينة الجزائر لكورين شوفاليه ، أن سكان الحصن ونتيجة للحصار المضروب عليهم ، كانوا يجلبون الماء من ماروقة ، وبعث على اثرها نيكلاس الخامس حاكم الحصن إلى حاكم إسبانيا في 8 أوت 1516 م أنه بقيت 15 قرية ماء ومؤونة لا تكفي 200 شخص ... الخ .

⁶⁷ عبد القادر حلمي : المرجع السابق ، ص 164 .

* ومن الآلات الحربية التي استعملها عروج في حصاره الحصن منجنيق يمكنه إطلاق قذائف تزن الواحدة 30 ليبرة من الحجارة .

⁶⁸ مجهول : المصدر السابق ، ص 39 ، 40 .

⁶⁹ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 30 .

⁷⁰ مجهول : المصدر السابق ، ص 31 .

⁷¹ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 46 .

* كان سالم التومي قد رشح يحي وهو ابنه البكر ليتولى مهمة ملك وراسة الثعالبة ، لكن هذا لم يحدث مع قوة الأتراك .

⁷² المرجع نفسه ، ص 46 ، 47 .

ذلك أنه خلصهم من هيمنة السلطان أبو زيان محمد الذي كان كثيرا ما يؤذي السكان⁷³، لقد كشف سالم التومي أسرار الأخوان ببروسة إلى الإسبان⁷⁴.

عمل عروج وهو المعروف بالحكمة العسكرية و الدهاء الحربي على إعادة الفار إلى بلاده مظهرا له الولاء والطاعة ، فقام بشنقه* بقماش عمامته وهو في الحمام* ، لما كان ذلك الرئيس السيئ يتأهب لصلاة الظهر⁷⁵، ولكن عروج لم يظهر جرمته ، فقد أخفى الأمر وقال أن الرجل اختنق في حمامه مخافة الانقلاب الشعبي⁷⁶.

فأخذ القتييل على سهوة الحصان إلى المسجد الكبير حيث ودعوه الوداع الأخير كملك لمدينة الجزائر⁷⁷، ونصب عروج ملكا على الجزائر⁷⁸، بعد أن أزاح ابن سالم التومي، وهو الصبي الذي لم يتجاوز الحادية عشر من عمره⁷⁹، واعتبر عروج نفسه غير مسؤول عن تنفيذ معاهدة الذل و العار المبرمة مع الكفرة⁸⁰.

وقد غادر أسطول إسبانيا في 30 سبتمبر 1516 م ، بقيادة ديغو ديفيرا ، من مدينة قرطاجنة ، وتكونت الحملة من 320 سفينة حربية ، وسفينة نقل على متنها 1500 مقاتل ، وهناك من أشار إلى أن العدد مكون من 60 إلى 80 سفينة على متنها 8000 رجل.⁸¹ الأمر الذي جعل الزياني يرسل بكتابه فقد تشجع واستأنس بهذه الحملة وكتب يقول : «...مولانا الفاضل لقد أوصى أبي بي إلى الملك رحمه الله - يعني

⁷³ عبد الحميد بن أشنهور : دخول الأتراك العثمانيين الجزائر ، الجزائر ، (بدون تاريخ) ، ص ص 71 ، 72 .

⁷⁴ عبد القادر حلمي : المرجع السابق ، ص 166.

* على إثر مقتل سالم التومي ، كان الإسبان قد جهزوا حملة بحرية صوب الجزائر ، بالتحالف مع أهل متيجة ، مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل ، يقودهم ديغواي فبرا ، فنزلوا بساحل باب الواد الذي كان مدعما بمنجنيق وقذافة بحرية تجرها عجلة نقل - طمبر - فانهمز النصرارى شر هزيمة ، وأسر منهم ألف وخمس مائة رجل حتى عرب متيجة لم يسلموا من القتل...أنظر صالح عباد : المرجع السابق ، ص 47 .

* عرف القصر الذي قتل فيه سالم التومي بقصر الحنينة .

⁷⁵ المرجع نفسه ، ص 167 .

⁷⁶ مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

⁷⁷ وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص ص 32 ، 33 .

⁷⁸ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 30 .

⁷⁹ وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص 33 .

⁸⁰ المرجع نفسه ، ص 33 .

⁸¹ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 33 .

* إن كورين شوفاليه مر من خلال ما رأيناه من كتابه يعتمد على جملة من الوثائق الإسبانية من مخطوطات ، فهو يصور لنا الأحداث كما وقعت من مصادر تركها ارباب السفن ، وكذلك رسائل نيكولاس الخامس حاكم قلعة البنيون ، وهي تقارير لم تصل قائد الحملة ديغوديفيرا .

فردناند – و الآن تحت حماية الوالي دوكورلوس *Docorlos أي في خدمته ويفعل بي ما يشاء... و الذي أحتفظ به منكم هي المنطقة الممتدة من الشلف إلى قبر الرومية*...»⁸².

وكتب ديغو دو فيبيرا بدوره رسائل دعم ليتهباً للهجوم على مدينة الجائر ، فكتب إلى حاكم حصن الصخرة المحاصرة من طرف الأتراك ورسالة إلى أبي عبد الله الزياني ملك تنس وإلى الخونة في الجزائر ، ورسالة إلى يحيى بن سالم التومي يقول فيها : «...أيها الشريف الشجاع و السيد الأمين ،وصلنا وفاة والدكم الأمين ولذا تمهينا لمساعدتنا عندما نصل الجزائر...ومنه القضاء على الترك ومن ساعدهم من البربر ... وإن الكاردنال قد حملني وصية تخص شرفك وشرف أهللك... »⁸³

ونتيجة الفوضى التي وقعت فيها جيوش النصارى لفتوا انتباه الأتراك المتفطنين ، وجرت معارك حسب لها عروج ألف حساب ، خرج على إثرها ملاقات عدوه في عقر داره – قلعة الصخرة – وعم فيهم القتل ، وأجبر ديغو على الاختباء حتى النهار والتحق بسفنه ورجع إلى بلاده* يحمل أذيل الهزيمة⁸⁴.

وهذا الانتصار زاد من هيبة عروج في البحار؛ وتثبت أقدامه في مدينة الجزائر، وقضى على أعداء الداخل⁸⁵، وبعدها أسس لنفسه ضربا حقيقيا من الحكم وصل فيه حتى تلمسان ، فكان له الشرف في تكوين النواة الأولى* لدولة مدينة الجزائر وتنظيمها⁸⁶.

* دومورلوس ، Docorlos : وهومن القادة العسكريين الإسبان الذين قدموا في بداية القرن السادس عشر عندما تم الاستيلاء على مدينة وهران و المرسى الكبير ، وقد عين واليا على المدينة من طرف الملك فردناند .
* قبر الرومية : وهو موقع أثري لا يزال لحد الآن ، يقع قرب مدينة تيبازة ، وقد مثل به الملك الزياني الحدود للملك الحفصسي ، فقد وصل منه إلى نحر الشلف .

⁸² عبد القادر حلمي : المرجع السابق ، ص 166 .

⁸³Andrer Berbrugger : Le Peguou d'Alger , Alger , (sans) , p29.

* المعروف أن القوات المعادية تحدد الأهداف الضعيفة ، كما فعلت فرنسا عندما وجدت سيدي فرج أضعف نقطة ، فالإسبان لم يحسبوا أن باب الواد منطقة قوية فكانت الهزيمة ، وباب الواد هذا معروف سابقا بباب العرب ، وهو الباب الغربي لمدينة الجزائر ، قريب من ساحل البحر والمنفتح على الفحص المحمي بمنحدرات جبل بوزريعة التي يرقدها وادي المغاسل...أنظر عثمان ، الكعك : الموجز في تاريخ الجزائر ، ص 274 .

⁸⁴ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 34 .

⁸⁵ المرجع نفسه ، ص 34 .

* عرفت فترة بربروسة وما بعدها بمرحلة رياح البحر ونعني بها : رؤساء السفن وقبطانيتها ، وعرف دخول الكثير من الأجناس في هذه المهنة من المالطيين و الأتراك و المغامرين المورسكيين و الإسبان وغيرهم ، ونجد أن من صفاتهم الشجاعة و الحنكة والقوة ، وكانوا يبحرون في فصلي الشتاء و الربيع ، وإذا خرجوا فمن طلوع الشمس إلى غروبها ، ووصفتهم الكتب الأوروبية بأنهم يخرجون للحرب و الصيد كصيد الأرناب ، ولم تكن هناك بحرية تضاهي بحرية الجزائر قوة في كل المتوسط ، وكان الصناعات من مختلف الأمصار وعلى رأسهم الأعلاج و الفرنسيون ، فوصلت عدد السفن في عهد خير الدين إلى 60 مركب .

⁸⁶ وليام سينسر : المرجع السابق ، ص 32 ، 33.

أهم أعمال عروج خلال هذه الفترة

كما دفع هذا الانتصار ما بين 1517م و 1518م بسكان المدن المجاورة كالبليدة والمدية ودلس ومليانة وجزء من بلاد القبائل الى مبايعة عروج أميراً عليهم و قد أقام خير الدين على بلاد القبائل ونصب عليها من طرف عروج حيث كانت إقامته بدلس*⁸⁷.

أما حاكم مدينة تنس مولاي أبو عبد الله راسل ملك إسبانيا وطلب منه المساعدة لطرد الوجود التركي خشية زوال ملكه⁸⁸ فعزم خير الدين في شهر جوان 1517م على أخذ مدينة تنس ، فتقدم إليها بجيش من المشاركة ، لأن أغلبية الجيش التركي كانت من الجند* القادمين من الشرق ، من أتراك ومغامرين ومن أعلاج وجماعات من سكان البلاد الواقعة شرق الجزائر⁸⁹. ومن أسباب تفكير عروج خير الدين في مدينة تنس أن حاكمها حميد العيد نظر بعين العدو و الكراهة إلى الإخوة ، خاصة وأنه عايش نكبت سليم التومي ، فجهز هذا الأخير حملة* وكعادة عروج لم ينتظر قدومه إليه ، فقد خرج لملاقاته على حين غرة في عقر داره ،وقد وضع خير الدين مكانه في مدينة الجزائر ، لأنه لا يزال متخوفاً من ردة فعل أهلها⁹⁰.

ومن أهم الاعمال التي قام بها في هذه الفترة قسم المنطقة الى قسمين قسم شرقي مركزه دلس يشرف عليه خير الدين وقسم غربي مركزه الجزائر يشرف عليه بنفسه ،وقد اعتبر هذا التقسيم بدايات التنظيم الإداري بالجزائر ،لانه قسم مناطق النفوذ الى منطقتين وكل منطقة لها حاكمها وذلك قصد تسهيل التدخلات العسكرية وحماية الحدود ووضع المناطق الغير امنة تحت حماية العثمانيين.

* دلس : أو هي مأخوذة من الأندلس ، وهي مرسى صغير شرق الجزائر .

⁸⁷ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 42 .

⁸⁸ مجهول : المصدر السابق ، ص 41 .

* استعمل جند عروج نوعاً من السلاح الجديد وهو الفتيلة أو ما يعرف عند الأتراك ب موسكيت .

⁸⁹ عثمان الكعاك : المرجع السابق ، ص 275 .

* ويشير صاحب كتاب غزوات خير الدين و عروج أن المقاومة الإسبانية لما أنجدوا ملك تنس تركوا بها أربعة سفن وخمسة من المقاومة كدعم للقائم ، وما نستشف من هنا أن هذه الفترة كانت مليئة بالخبايا وأن التواجد التركي كان غير مرغوب فيه ، فعند الزعامات الوجود الإسبانية وبقاءهم في مراكز الحكم أفضل من بربروسة ومضايقاتهم لهم .

⁹⁰ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 34 .

حصار قلعة بني راشد واستشهاد إسحاق

لم يكن المقام بعروج بمدينة تنس حتى جاءه وفد كبير من مدينة تلمسان⁹¹، وكان بلغ مسامع عروج أن سلطانها قد أضر بأهلها وعمهم جورهم وظلمه فثنى عزمه إليها، وكان له أخوان قد عزلهما من ملكه⁹²، وكان أبو حمو الثالث الذي تسلم مقاليد الحكم بمساعدة الإسبان طبعاً مقابلة التبعية لهم، لبّي عروج طلب الأهالي واتجه صوب تلمسان، بعد أن استخلف أخوه خير الدين على الجزائر ككل مرة، مازال لا يأمن على ما في قلوب الناس من انقلاب، فاتخذ البطل طريق الهضاب الداخلية حتى لا يصطدم بالنصارى من ناحية وهران فيقطعون عنه طريقة⁹³، وبعد وصوله إلى قلعة بني راشد*، وهي بجوارة، ترك أخاه إسحاق مع فرقة من الجيش ليكون في حمايته من الخلف، وهي خطة رجل لا يؤمن على نفسه من طبائع البربر والنصارى، وبعد هذه الخطوة الكبرى شعر الإسبان أن مصالحهم في خطر⁹⁴.

وعند اقتراب عروج من تلمسان وجد جيش أبو حمو في استقباله في تعداد عظيم يقدر بـ 6000 فارس و3000 رجل يحاولون صدّه، فنشبت حرب ضارية بين الطرفان، انهزم فيها أبو حمو رغم كثرة جيشه، إلا أن الحصانة والقوة والتكتيك العسكري كان ينقصانه⁹⁵، ومن سياسة عروج ودهائه أنه جعل أهل المدينة ينتلون عليه من كل ناحية ويتلقونه بالطاعة والمكرمة، فلما رأى سلطانهم هذا الأمر زاد الأمر سوءاً عليه، وأدرك أنه لا طاقة له بعروج ففر من تلمسان* مع جميع أمواله وذخائره حتى لجأ إلى فاس مستنجيراً بسلطانها من بني مرين⁹⁶.

⁹¹ محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 26 ، 27 .

⁹² مجهول : المصدر السابق ، ص 32 .

⁹³ محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 27 .

* بني راشد : من أغنى بلاد الله زرعاً وذرعاً تعطي الميرة أي الطعام لكل ناحية ، وكانت وهران في هذه الفترة محتلة من طرف إسبانيا ، وتكمن أهمية هذه القلعة - بني راشد - أنها كانت تمد النصارى بالمؤونة ، وقد لام سلطان تلمسان المخلوخ النصارى كثيراً لأنهم لو أعانوه بالمال و الرجال ، ما كان حل بهم وما حل ، ولبقيت القلعة الأم الحنون و البقرة الحلوب لهم .

* ذكرنا بني راشد القرية وبها القلعة التي تبعد عن معسكر بنحو 25 كلم ، وعن مستغانم 55 كلم ... أنظر مجهول : غزوات عروج و خير الدين ، ص 32 .

⁹⁴ مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

⁹⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 59 .

* بالرغم مما فعله عروج إلى أبا زيان ، لما أجلسه عروج على عرش تلمسان ، سرعان ما قد خانته ، الأمر الذي دفع بعروج بقتله ، وقتل كل من يحاول المراوغة ... أنظر عبد الرحمن ، جيلالي : المرجع السابق ، ص 47 .

⁹⁶ مجهول : المصدر السابق ، ص 33 ، 34 .

معركة تلمسان واستشهاد عروج 1518م

بعد أن تمكن عروج من تلمسان منع أهلها من التعامل مع الإسبان وتقديم المدد لهم ، فضاقت أحوالهم ، فاستغل أبو حمو الثالث الفرصة وراسل الإسبان كما سبق الذكر ، ولما بلغ الأمر الإسبان ردوا عليه قائلين : « أنتم لم تطلب منا مددا ولو كنت فعلت لنصرتناك ووجهنا لك ما تريد و الآن قد أنعمنا عليك بما تريد فتوجه لعدوك ونحن معك . »⁹⁷

وراسلهم مرة أخرى فقل لهم: « مدوني بحملة وافرة من المال و الرجال لأنفقه في سبيل غاييتي ، واستخلص به المدينة من يد الأتراك ، وحين ترجع العمالة إلى يدي ترجعون إلى ما كنتم عليه من إمدادكم بالزرع والأنعام وسائر ما تحتاجون إليه . »⁹⁸ وما زاد في تأزم الوضع هو انضمام أبو زيان المسعود الثالث إلى صف عمه أبي حمو ، لذلك لم يجد عروج بدأ من إيقاف هذه المشاغبات ، فقتل أبا زيان وكل المناوئين له ، واغتتم الإسبان هذه المرحلة المضطربة ، فاخذ حاكم وهران يستعد لمهاجمة قلعة بني راشد ، و في نفس الوقت انتبه عروج لهذه العملية من جانب الإسبان فوجه أحد قواده إلى حيث أخيه إسحاق⁹⁹

وإقليم بني راشد هذا يمتد على طول نحو خمسين ميلاً من الشرق إلى الغرب ، وعلى عرض يقرب من خمس وعشرين ميلاً ، جهته الواقعة جنوباً كلها سهول و الواقعة شمالاً كلها مرتفعات ، لكن أراضيها معاً صالحة للزراعة ، وينقسم سكانها إلى قسمين فأهل المرتفعات يسكنون دوراً لائقة جداً مبنية بجدران ويزرعون الحقول و الكروم ، ويشغلون بسائر ضروريات الحياة .¹⁰⁰ وقد أمد النصارى أبا حمو بسبعة آلاف دينار ذهباً واخذوا منهم رهناً على هذا بأخذ ستين من أبناء أشياخ عربيه ، فاجتمع له الخيل نحو الخمسة عشر ألف ، وخرج النصارى ممدنين له بخمسة عشر مائة ، فلما سمع خير الدين بذلك ، وجه جيشاً إلى قلعة بني راشد وأمر عليهم أخاه إسحاق ، وتقاتل الفريقان وكان النصر لطائفة الإسلام ، فقتلوا منهم سبع مائة ، وأسر ثلاث مائة ودخل المسلمون القلعة ، أما الإسبان فقاموا بتنصيب المدافع في حين يخرج المسلمون يرمونهم بها ، فاستشهد الكثير منهم ، ورجع الباقون

⁹⁷ مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

⁹⁸ المصدر نفسه ، ص 33 ، 34 .

⁹⁹ الحسن بن محمد الوزاني الفارسي - ليون الإفريقي - : وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد الأخضر و محمد حجي ، ط2 ، 1983 ، دار الغرب الإسلامي

، بيروت ، لبنان ، ص ص 26 ، 27 .

¹⁰⁰ مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

إلى القلعة ، وبقوا في الحصار نحو ستة أشهر ، فقام النصارى بحفر الخنادق و الأنفاق وملئوها بالبارود مما أدى بانفجارات داخل القلعة ، هذا ما جعل المحاصرين يعقدون اتفاقاً مع العدو¹⁰¹ .

وجاء في مضمون هذا الاتفاق أن يرد الإسبان الأسرى لجيش المسلمين ، وخروج المحاصرين بجملة أمتعتهم ، وأن يكون بيد المحاصرين الإسبان 16 رجل من المحاصرين المسلمين ، وعندما شرع المسلمون في الخروج خرق الإسبان الاتفاق وشرعوا في اخذ متاع المسلمين واستذلأهم وهذا ما أدى إلى اندلاع الحرب من جديد .¹⁰²

وزادت إسبانيا إمداداتها إلى حمو الذي قدمت إليه قوة مقدره ب ثلاث مائة رجل بقيادة القائد مارتان درغوط ، وفي 15 من نفس الشهر* ، خرج الجنود الأتراك من القلعة بقيادة إسحاق ليهاجموا معسكر أبي حمو و الإسبان ليلاً ، غير أن الطرف الثاني تمكنوا من ردهم بعد أن قتلوا وجرحوا عددا منهم ، ولم يفقد النصارى إلا قتيلين وبعض الجرحى ، لقد تمكن العدو من إسحاق وقائد قواته* بعد أن استسلم ، وقد اختلف في أمر إسحاق ابن يعقوب ، فهناك رواية تذكر أنه قتل من طرف سكان القلعة الذين انقلبوا عليه ، وهناك رواية أخرى تذكر أنه قتل من طرف إتباع أبي حمو ، وفي نهاية الأمر استولى سلطان تلمسان على القلعة ، ثم ذهب هو ومن معه إلى تلمسان وحاصرها لمدة ستة وعشرين يوماً¹⁰³ . رغم هذه البطولة التي قام بها النصارى وعملاؤهم من بلاد المغرب ، إلا أنهم أدركوا أنهم لا قبل لهم بمهاجمة عروج رغم افتكاكهم القلعة ، فذهب حاكم وهران دوكماريوس الماركي إلى إسبانيا لمقابلة الملك العظيم شارلكان ، فأطلعه على الخطر المحدق بالمستعمرات

¹⁰¹ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 190 .

¹⁰² المرجع نفسه ، ص 190 .

* كان الشهر الذي قاد فيه درغوط الحملة ضد قلعة بني راشد في - فيفري - .

* الرجل الذي كان يعتمد عليه إسحاق في قلعة بني راشد يقال له " اسكندر " ، وقد خاض معارك طاحنة مع النصارى إلى أن قتل - رحمه الله - ، ولكن الباقي وهي قلة استمرت في القتال إلى أن استشهد الجميع رحمهم الله... أنظر مجهول : غزوات عروج وخير الدين ، ص 34 .

¹⁰³ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 46 .

وقوة عروج البحرية والحربية ، فاستحسن هذا الأخير تدبير حاكم وهران وأرسل جيشا عرمرم نزل بوهران عام 1518 م .¹⁰⁴

لم يتمكن عروج على إثر القتال الذي جرى بالقرب من القلعة ، ولم يحتمل مقتل أخيه إسحاق ومن معه فاتجه صوب قلعة المشور* ، ينتظر إمدادات من قبل سلطان فاس المريني تنفيذًا للوعود التي كانت بينهما ، وقيل بأن الملك المغربي بعث المدد عبر طريق مليلة فطال به الطريق ولم يصل في الوقت المناسب ، ضاق على إثرها الحصار على عروج ولم يبق منهم سوى 500 رجل ، لكن الخديعة تنجح أحيانا ، فيما لا ينجح السلاح ، فعند مجيء عيد الفطر تقدمت جماعة من المسلمين وطلبت من حراس المعقل السماح لهم بإقامة صلاة العيد في مسجد المشور فأذن لهم بذلك ، وما كادت هذه الجماعة تدخل المسجد حتى أخرجت السلاح وشرعت في قتال الأتراك فتصدت لها جماعة عروج ، فقرر هذا الأخير الخروج من المشور نحو بلاد الساحل وكان الإسبان يترصده ، وجرت بينهم معركة عنيفة¹⁰⁵ ، استشهد بعد هذه المعركة كل رجال عروج وبقي يدافع عن نفسه لوحده ضد القائد كارسيبا الإسباني إلى أن تمكن منه النصاري* ، فقاموا بنزع رأسه وساروا به نحو وهران ثم أرسل في كيس إلى إسبانيا ثم انتشر إلى معظم دول أوروبا ، وكانت نهاية رأسه هذا أن وضع في دير القديس سان جيروم¹⁰⁶ . وفرحا بهذا النصر أخذت ملابسه إلى إسبانيا واخذوا يطوفون بها في الشوارع و الأتراج تطمينا لأفئدة السكان المملوءة غيضا وحقدا على المسلمين ، ويروى أن جثمانه قدم به إلى العاصمة فدفن بجوار ضريح سيدي رمضان ، وقبره من يمين الداخل للضريح متميلا بجدران المسجد¹⁰⁷ .

وأعاد الإسبان أبا حمو الثالث المحتضر على أن يكون حليفهم ضد الأتراك ، ويدفع لهم سنويا عشر ألف دوكة أو بياستر* ، و 12 فرسا و 6 صقور رمزا لخضوعه واستخذانه للإسبان ، وفي هذه السنة جدد خير الدين سور مدينة الجزائر* ، الذي أنشأه بلكين ملك صنهاجة من قبل .¹⁰⁸

¹⁰⁴ محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 28 .
* قلعة المشور : هي من الآثار القديمة بمدينة تلمسان بني عام 540 هـ ، وسكنها ولاية دولة الموحدين ، وبعضهم يقول ملوك بني زيان ، سمي المشور لأنهم كانوا ينصبون فيه ديوان وزرائهم ، وبقية منه بقايا إلى يومنا هذا ... أنظر مجهول : غزوات عروج وخير الدين .
¹⁰⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص ص 192 ، 193 .
* توفي عروج في شهر ماي 1518 م ، شهر جمادى الأولى سنة 924 هـ ، وعمره يومئذ 50 سنة ، و المكان المسمى مقطع وادي الملح أو ، Rio Salado ، وهناك من يقول عند جبال بني موس ، يوم عيد الفطر ، وهناك من قال قرب جبل بنتي زينا سن .
¹⁰⁶ مجهول : المصدر السابق ، ص 34 .
¹⁰⁷ عبد الرحمن جيلالي ، المرجع السابق ، ص 44 .
* الدوكة أو بياستر : عملة إسبانية .
* وهو بناء مكسر للأمواج على طول 200 متر وعرضه 25 متر ، وعلوه 4 متر ، ويط بين المدينة وجزرها بمشي .
¹⁰⁸ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 44 .

أما موقف خير الدين من مقتل عروج فقد استسلم لأمر الله تعالى ، وكان قد أدركه فصل الشتاء ، فلم يقدر على الحركة فيه ، فلما انصرم الفصل ودخل فصل الربيع خرج على حملة كبيرة احتوت على سبع مائة مقاتل من الجيش وعشرين ألف فارس ، وبقي يحرس العمالة خوفاً عليها من سلطان تلمسان ، وقد كان تخوفه من الناحية الغربية ، فبعث إليهم قائلاً : " إن قدم إليكم فأعطوه يدي الطاعة ظاهراً أو صانعه بهدايا تموهون عليه بها لئلا يلحقكم ضرر من ناحيته " ، فلما دخل السلطان إلى عمالة خير الدين فما يليه من ناحية الغرب أطاعه أهلها كما رسم لهم بطلهم خير الدين .¹⁰⁹

ومما قيل عن عروج بعد وفاته ، أن سبب قتله هو أنّ الجزائريين راسلوا حاكم البرج الإسباني سرّياً واتفقوا معه بأن يقتل جميع الأتراك، وأن يضعوا أنفسهم تحت حماية النصارى أفضل من العنصر التركي الذي لم يعرف كيف يتحكم في البلاد ، ويذكر أحد المؤرخين أن عروج قتل على بعد 92 كلم من تلمسان بينما كان فاراً متجهاً إلى يزناسن ، وذكر شارل آندري جوليان ، وهكذا انتهت في سن الأربعين عاماً هذه الحياة المجيدة في ميدان المغامرة ، إنه الرجل الذي أنشأ القوة العظيمة لمدينة الجزائر و البلاد البربرية ، أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه في وسط مليء بالمنافسات ، أن يؤسس دولة إسلامية قوية¹¹⁰.

المحور الثالث

الجزائر العثمانية و أهم أعمال خير الدين بها

أولاً - ربط الجزائر بالدولة العثمانية

وكان سلطان آل عثمان في هذه الفترة يقال له سليم خان ، كما سبق الذكر ، وكان كاسر سلطان العجم وفتح إقليم مصر وسائر ممالك العرب أولي الشمم ، جلس على تحت سلطنة ، ولم تطال أيامه بها لكثرة سفكه للدماء إذ جرت عادة الله س بحانه وتعالى بذلك في كل من يتعود سفك الدماء ، وتولى بعده سليمان الابن البكر ، مكث في السلطنة تسع وأربعين سنة ، وله فتوحات كثيرة ، منها فتح رودس وقد أنزل أهلها الأمان ، وفتح الأنكرس وقلع كاتورا و بودن و أيلوق و راجة و برفاص و حاصر قلعة بتاق و بيح ، كما فتح العراق وقلونية

¹⁰⁹ مجهول : المصدر السابق ، ص 34 .

¹¹⁰ شارل آندري جوليان : المرجع السابق ، ص 330 .

عام 1537 م، وفيها وصلت الدولة أعز وأكبر قوتها و أيامها من سليم إلى سليمان¹¹¹. كان اتصال الإخوة ببربوسة أول مرة بالبواب العالي عام 1518 م ، بعد عودتهما من الغزو في البحر غانمين ، فبعثنا رسالة إلى سليم الأول ومعها هدية عظيمة ، ورد عليهم السلطان بإرسال قوة عسكرية مكافأة لهما على هديتهما ، وتعتبر القوة أول فرقة عسكرية تدخل الجزائر رسميا من طرف آل عثمان ، تشجيعا منهم لبربوسة على الغزو في البحر لا كممثلين لهم بالجزائر .¹¹²

لقد رأى خير الدين بادئ الأمر أن الإسبان سوف يتوجهون إلى الجزائر ولم تكن له القوة الكافية لمواجهةهم ، خاصة أن قبيلة الثعالبة في المتيجة التي كان بإمكانها أن تجند آلاف الفرسان ، قبل أن يشتمها الترك ، كانت تتحين الفرصة للانقضاض عليه ، غير أن لا هذه ولا تلك لم يقوموا بأي تسرع أو هجوم على المدينة ، لقد عبر خضر عن نية الرحيل و العودة من حيث جاء بعد أن فقد جميع إخوانه ، وهو نشاط البحري أو النزوح إلى مدينة ساحلية أخرى ، لكنه لما رأى النصارى يعودون إلى وهران بعد أن نصبوا عاملهم أبا حمو على عرش تلمسان* ، وأرسلوا أجزاء من قواتهم إلى إسبانيا ، عدل عن رأيه وأخذ برأي رفاقه ورأي أغلبية العلماء رأي جميع من أحبه بالبقاء في المدينة لحمايتها ورد العدوان عنها¹¹³. كانت الأوضاع في الجزائر مضطربة و متدهورة ، خاصة بعد معركة تلمسان ، خاصة أن سلطان بني حفص طلب من خير الدين الاعتراف به وبحكمه ، وقيام ثورات في عدة مناطق في زاووة و تنس* ، وشرشال* ، كما أن الإسبان المنتصرين سيندفعون لا محالة بقوة نحو الجزائر للقضاء على خير الدين الرامي إلى السيطرة على الشمال الإفريقي ، إن هذه الحالة المتردية التي وجد خير الدين نفسه فيها ، وأوضاع خارجية طامعة ، فلم يكن له إلا إظهار الولاء إلى السلطان سليم الأول الذي كان في أوج قوته ، حيث أصبح يسيطر على جزء مهم من العالم الإسلامي - مصر و الشام¹¹⁴. وفي الحقيقة أن خير الدين قرر الاستعانة بالإمبراطورية العثمانية حتى يتمكن من الحصول على المال و القوة العسكرية اللازمة لمواجهة الخطر المحدق به ، خاصة أن إسبانيا كانت تتزعم العالم المسيحي وتعتبر القوة المهيمنة في شمال إفريقيا وجنوب أوروبا ،

¹¹¹ علي بن محمد الأندلسي : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق : محمد حبيب العميلة ، ق 1 ، دار الكتاب الشرقية ، تونس ، 1973 م ، ج 2 ، ص ص 85 ، 86 .

¹¹² أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 197 .

* تلمسان حسب ما وصفها الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق وهي مدينة مشهورة بالمغرب ، عظيمة وعليها صور حجارة وخلفه صور آخر ، نزل رجل من أهل البربر يقال له محمد بن قاسم بن سليمان بن محمد بن سليمان .

¹¹³ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 46 .

* مرسى صغير بعمالة الجزائر قرب وهران يسكنه 5000 نسمة ، ونعني به تنس .

* كانت في عهد الرومان عاصمة مملكة كبيرة ، ومرساها الآن في غاية الصغر ، حكمها خير الدين في 1520 م ، تقع غرب مدينة الجزائر ، ونعني به مرسى شرشال .

¹¹⁴ جون بول وولف : الجزائر و أوروبا (1500 - 1830 م) ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 م ، ص

وتحقيقا لهذا الهدف قام الخضر ببناء أسطول حربي مجهز بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ، كما أن خوف القيادات الداخلية من فقدان سلطانها قد عجلت بتحريك خير الدين لكي يقوم بتوثيق هذه العلاقة مع آل عثمان¹¹⁵ ، لقد عزم خير الدين قبل هذه التجهيزات على السفر إلى الروم لأجل الغزو ومواجهة هذه الأخطار من هناك ، وجمع أهل البلاد وقال لهم : « إني عزمت السفر إلى حضرة السلطان ، وأمنت بلادكم من العدو بما تركت فيكم من جهاد ، ومن وصلب إليكم من أهل الأندلس ، وما تركت عندكم من عدة ، لقد تركت أكثر من 400 مدفع ولم يكن في بلادكم مدفع واحد» ، وما خاطبه به الناس أنهم قالوا له : « أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك ، فإله الله أمة سيدنا محمد فإن الله يسألك عنهم» ، ومن جملة ما خاطبه به العلماء أن قالوا : « أيها الأمير يتعين جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها و الذب عن ضعفاء أهلها ، ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو » ، فعند ذلك قال لهم خير الدين : " أنتم رأيتم ما وقع من اللاعبين الكفار ولا يؤمن عواملهم وقد ظهر لي من الرأي أن نصل بيدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا سليم " .¹¹⁶

رضي أهل المدينة باقتراح خير الدين ، وكتبوا كتابا كما أمرهم وكتب هو كتابا آخر ، وعين أربعة أجفان برسم السفر إلى السلطان ، وقدم عيهم رجلا من خواص أصحابه اسمه الحاج حسين ، ووجه صحبتهم هدية عظيمة من جملتها أربعة رؤساء من النصارى العظام ، فوصلت أجفان المسلمين الجزائريين إلى السلطان سليم ، فلما رسوا بالقسطنطينية وقابلوا قصر السلطان رموا على حسب ما جرت عليه العادة مدافع كثيرة ونزلوا بتلك الهدية إلى الوزير الأعظم فأعلم السلطان بقدمهم وأوصل إليه ما جلبوه معهم¹¹⁷ .

وقد نشر الدكتور عبد الجليل التميمي ترجمة عربية لوثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإسطنبول تحت رقم 6456 ، وهي رسالة أهالي الجزائر على اختلاف مستوياتهم بتاريخ 26 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1519 م ، وكان هدف خير الدين ربط مصير الجزائر رسميا بالدولة العثمانية ، رسالة موجهة باسم جميع الطبقات من القضاة والخطباء و الأئمة و التجار والأعيان وكافة السكان ، وهذا دليل على رغبتهم الجارحة في التخلص من الذل وهيمنة النصارى التي بدأت تتلاشى من موانئ المغرب .¹¹⁸

¹¹⁵ عمار بوحوش : التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 م ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 54 .

¹¹⁶ جمال قنان : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر (1500 - 1830م) ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، ص 43 .

¹¹⁷ مجهول : المصدر السابق ، ص ص 41 ، 42 .

¹¹⁸ حلمي محروس إسماعيل - تاريخ العرب الحديث - من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى - ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ،

1997 م ، ص ص 25 ، 26 .

وجاء في نص الرسالة ما يلي : «... إن أهل مدينة الجزائر هم عبيد السلطان العثماني ، ليس لهم أحد سواه ، يلجأون إليه في موقفهم الحرج استفادوا بأفضال بابا عروج في مدافعة الكفار ، لأنه كان ناصر الدين و الحامي المجاهد في سبيل الله ، إلى أن سقط شهيدا في حصار الإسبان لمدينة تلمسان ، وخلفه أخوه المجاهد في سبيل الله خير الدين ، وكان له خير خلف ، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل و الإنصاف ، وإتباع الشرع النبوي الشريف ، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم و الإجلال ، وكرس نفسه وماله للجهاد لإرضاء رب العباد ، وإعلاء كلمة الله ، ومناط آمال سلطتهم العالية... ونحن معه ثابتون ونحن وأمير خدام أعقابكم العالية وأهالي إقليم بجاية و الغرب و الشرق خدمة مقامكم العالي ، وأنا المذكور حامل الرسالة سوف يعرض على جلالتك في هذه البلاد من الحوادث و السلام .»¹¹⁹

وعند الدراسة التحليلية لهذه الرسالة تتبين لنا اتجاهات خير الدين اتجاه الدولة العثمانية ، وهي أن خير الدين وهو حاكم المسلمين رسميا في شمال إفريقيا ، معتمدا على القرآن والسنة ، ونشاطه يتركز في قيادة العمليات البحرية وولاء خير الدين للدولة الرسمية وسلطانها سليم ، وكذلك تبين لنا تفاهم وتماسك الأطراف الداخلية والجزائريين ككل .¹²⁰

ثانيا- تعيين خير الدين بيلرباي على الجزائر

أعطى السلطان سليم منصب بيلربك لخير الدين ، وأصبح القائد الأعلى للقوات البحرية و العسكرية في إقليمه ممثلا للسلطان ، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم آل عثمان ، وأصبح أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية ، ودعم السلطان هذا القرار بقرارات تنفيذية ، إذ أرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية وألقي من جندي انكشاري ، ومنذ 1520 م ، بدأ الانكشارية يظهرون على الحياة السياسية و العسكرية في الأقاليم العثمانية لشمال إفريقيا ، وأصدر السلطان بموجبها قرارات أخرى منها أن تدخل الجزائر رسميا تحت لواء الدولة العظمى منذ 1520م ، ودُعي السلطان سليم من على منابر المساجد ويسك العملة باسمه ، وتم بهذا كل الإجراءات لتصبح الدولة إقليما لا يتجزأ من اسطنبول ، فلم يكن بذلك دخول الأتراك إلى الجزائر غزوا أو فتحا إنما هو لرغبة أهل البلد واعتبروا منقذين ، فكانت الجزائر أول أقاليم المغرب العربي التي تدخلت تحت الدولة العثمانية ، وأصبحت ركيزة للجهاد في المتوسط ، وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الإفريقي

¹¹⁹ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 48 .

¹²⁰ عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة الإسلام المفترى عليها ، ط2 ، 1986 م ، مكتبة الإنجلو مصرية ، القاهرة ، ص 208 .

لتوحيده تحت راية الإسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الإسبان اتجاههم .¹²¹

لقد كان خير الدين سبب سعادة الترك وانتشار صيتهم بالمغرب¹²²، وقبل خير الدين حكم البلاد على شرط قتل المفسدين وكتب منهم جماعة ، وأرادوا قتلهم فقال : لا تقتلوا منهم إلا من عظم شره وكثر فساده ، واحرصوا على ذلك ، واحرصوا أمر الفتنة في نفر منهم فقال لهم : « تحروا الفساد ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وذلك كله احتياطا منه رحمه الله ، وحذر سفك الدماء من غير وجه شرعي وأقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر سواء بدافع نزعة الدين أو الرغبة في الحصول على الغنائم ، وأدت هذه الهجرة إلى نتائج عدة .¹²³

ثالثا- أهم إنجازات خير الدين

هزيمة الإسبان بالجزائر 1519 م : كان استشهاد عروج وهزيمة المسلمين ، قد ولد ارتياحا كبيرا لدى الأوساط المعادية ، وظن الإسبان أن النصر النهائي قد تحقق لهم ، و الفرصة بأيديهم لأخذ الثأر من سكان الشمال الإفريقي المسلمين ، فقرر الإمبراطور شارلكان القضاء نهائيا على الأتراك بالجزائر ، واستعد لتعبئة حملة مجهزة بأضخم عتاد حربي ، انطلقت الحملة من مرسى جنوة عام 1519 م ، مشتملة على ما يفوق 40 قطعة بحرية و 5000 مقاتل يتأسسها والي صقلية (Marino Ganzalo) ، ونائبه (Hugo Mancada) في 17 أوت 1519 م¹²⁴.

اختار الجيش الإسباني ميدانا لعملياته الحربية وهي منطقة كودية الصابون* ، أما خير الدين والجزائريين فإنهم رأوا أن يتركوا الإسبان ينزلون في المنطقة التي اختاروها في البر ثم يقوم هو وجيشه بمحاصرتهم من كل جهة ، فصعد النصارى المرتفعات وأسرعوا لبناء قلعة حصينة فوق الكدية ودعوها باسم قلعة الإمبراطور وجهزوها بالمدافع و المعدات الحربية¹²⁵.

وكانوا بقيادة Hugo Mancada مع 1500 رجل ، يريدون الهجوم الفوري على المدينة ، في حين القائد الآخر كان يرى في ضرورة انتصار سلطان تلمسان بقواته البرية ، أثناء هذا الخلاف هاجم خير الدين

¹²¹ علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص 213 .

¹²² الأغا بن عودة المزاري : طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تحقيق : يحي بوعزيز ، ط 1 ، (1990م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ج 1 ، ص 25 .

¹²³ عبد العزيز الشناوي : المصدر السابق ، ص 910 .

¹²⁴ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، 44 .

* كودية الصابون : تقع في الساحل الممتد على يسار وادي الحراش ، وما يسمى اليوم بالفرنسية فور لابنورور .

¹²⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 206 ، 210 .

المواقع الإسبانية فجأة ، كانت المباغته كبيرة إلى أن فر الأعداء إلى مراكبهم ، لكن في هذه الفترة هبت عاصفة بحرية دامت يومي 21 و 22 من شهر أوت فأعاقت عمليات إلكوب وفي يوم 24 تمكن هوكو ديمونكادا من أن يركب مع بقايا جنوده ، لكن ما إن تحرك الأسطول حتى عادة العاصفة من جديد ، ودفعت الجزء الأكبر من مراكبه نحو الساحل ، فلم ينج إلا العدد القليل منهم ، لقد خسرت هذه الحملة ثلاثين مركبا ، وفقدت ما يقارب من 4000 رجل و 3000 أسير و البقية قتلوا ، ومن بين الأسرى رئيس الحملة¹²⁶ . بعد هذا النصر استولى خضر على مدينة القل في الساحل الشرقي لمدينة الجزائر ثم بونة* ، وشرع بعدها بتوزيع الوظائف وتعيين الولاة ، فعين أحمد بن القاضي* خليفة في الناحية الشرقية ومحمد بن علي على الناحية الغربية¹²⁷ .

لقد انتقم النصارى من هزيمتهم الفادحة أمام خير الدين بمهاجمة القبائل العربية القريبة من وهران ، بعد أن دخلت بقايا الحملة إلى المرسى الكبير وانتقال الجنود إلى المدينة ، نظم الحاكم الإسباني خرجة إلى سهل سيرا ، فألحق أضررا بليغة بقبائل مختلفة ، حتى أن أصدقاء الإسبان من الأهالي لم ينجوا من هذا الفعل ، وبعد أن كسب خير الدين دعم الدولة العلية* فإنه سيعمل للقضاء على مملكة كوكو وكل حلفائها .¹²⁸

إنجازاته بعد تعيينه بيلرياي

بعد أن ارتبطت الجزائر رسميا بالدولة العثمانية 1519 م ، أهم ما افتتح به خير الدين نشاطه هو انصرافه إلى تنظيم أمور الولاية الجديدة* ، والعمل على تسخير كل الطاقات و الإمكانيات من أجل تأمين متطلبات الحرب التي باتت وشيكة لا سيما أن إسبانيا التي ترى أن انضمام الجزائر إلى السلطنة هو القضاء على نفوذها حتما وخاصة ما غنمته من امتيازات في بداية القرن السادس عشر¹²⁹ . وكان السلطان العثماني قد أمد خير الدين بكل ما طلبه وكان وضعه ينذر بجوٍ سياسي وعسكري جديد يحتم عليه المحاربة على جبهتين :

¹²⁶ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 50 .

* بونة : مدينة رومانية ، وهي اليوم مدينة عنابة في الشرق الجزائري ، مدينة ساحلية بها كنيسة القديس أغستين .

* ابن القاضي : الملقب بالغبيري كان يحكم إمارة جبل كوكو القريبة من تواجد خضر ، وقد تحالف مع الحفصيين .

¹²⁷ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 45 .

* الدولة العلية : من الألقاب التي تطلق على الدولة العثمانية .

¹²⁸ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 51 .

* لقد أصبحت مدينة الجزائر حقا جديدة ، فحسب المصدر ليون الإفريقي في كتابه وصف إفريقيا أن عدد المنازل وعمرانها قد زاد وكثرت بها الحمامات والفنادق وفيها الجامع الكبير المطل على ساحل البحر ، والبساتين المنتشرة في المدينة وحولها وواد الحراش الذي يشرب منه العامة ، ولأهل المدينة أسطول بحري يغرون به على سواحل إسبانيا وكذلك على جزر ميورقة ومينورقة ولعا أسوار عالية مبنية بالحجارة الكبيرة ... أنظر وصف إفريقيا للوزان - ليون الإفريقي - ، ج 2 ، ص 37 ، 38 .

¹²⁹ بسام العسلي : المرجع السابق ، ص 109 .

الجبهة الأولى : المعارضة الداخلية من أجل توحيد المغرب الأوسط ، الذي تعرض لمؤامرة من بني زيان وبني حفص وأحمد بن القاضي (كما سيأتي شرحه) ، لكنه ورغم ذلك تمكن من مد نفوذه متخذاً من اسم الدولة العثمانية وحماية الإيالة الجزائرية ومد نفوذه لمدن الداخل الهامة وعلى رأسها قسنطينة .¹³⁰

الجبهة الثانية : وهي الأخطر وهم بالطبع النصارى الإسبان من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر ومواجهة أطماعهم وتحرشاتهم في الجزائر خاصة و في كل الساحل المغربي عامة ، وقد تمكن من تحقيق ما أرادته في كل الأحوال و الأهوال¹³¹.

لقد كان على خير الدين تسوية المشكلة الكبيرة مع أحمد بن القاضي و الذي لن يصفح عنه لأنه معتبراً سبباً مباشراً في مقتل عروج وقد أكملت فرحة خير الدين حينما انتهى من تسليح جيوش الإنكشارية ووجههم صوب القبائل لمهاجمة ابن القاضي في عقر داره .¹³²

كما قام ببناء الصور المهدم ، ورض الحجارة التي جلبت من تامنفوست* ، التي انتصبت فيها الآثار على طرف الخليج ، كما بنى أيضا الأسوار من القرميد النئى مجمعا بواسطة ملاط جيد يتكون من خليط الكلس الذهبي و التراب الأحمر ورمل المحاجر ، متركزة على قاعدة من حجارة الفليس ، وفي بعض الأحيان فوق الحائط الروماني القديم حيث نجد الحجارة من الحجم الكبير وارتفعت الأسوار بعلو يحصن الميناء ، وحفر خندق عظيم حولها¹³³. و الشيء اللافت للانتباه و الدال على تمسك خير الدين ومن معه بمبدأ الدين أن بنى المساجد فالكتابة التي وجدت داخل مسجد جمعه الشاوش تبين لنا - الكاتب - تاريخ بنائه وكان ذلك عام 1520 م ، وهذا الجامع المبارك الذي بناه في سبيل الله ، وفي عهده ارتفعت المنازل أيضا لإسكان كل القادمين الجدد ، واحتفظ الإسبان دائما بقلعة الميناء - البنيون - إلا أن مدينة الجزائر تجاهلتهم واحتقرتهم وامتألت بالنشاط و استعادة القرصنة نشاطها بدون توقف ، وكانوا يجهزون حملات ضد المسيحيين وأخذ كل من هو مسيحي يرغب في العودة إلى بلاده وكذلك حملوا العبيد و الغنائم¹³⁴.

¹³⁰ ابن يحيى و جاد طه : العرب في التاريخ الحديث ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، 1977م ، ص 21 .

¹³¹ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 42 .

¹³² المرجع نفسه ، ص 42 ، 43 .

* تامنفوست : وهي روسيفينسا القديمة ترجع إلى الفترة الرومانية ، وبالفرنسية . Ru Siguimia .

¹³³ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 42 .

¹³⁴ المرجع نفسه ، ص 42 .

المواقف من تولي خير الدين حكم الجزائر.

أ. موقف ابن القاضي:

كان خير الدين قد قسم البلاد إلى قسمين ، قسم شرقي يشمل البلاد القبائلية الجبلية من شرق العاصمة الجزائرية إلى حدود المملكة الحفصية التونسية ، ووضع عليه أحمد ابن القاضي الغبريني كما سبق ذكره ، أما القسم الغربي الذي يمتد من الجزائر إلى حدود دولة بني زيان فوضع عليه محمد بن علي واعتقد أنه بإمكانه الاعتماد عليهما في تسيير أمور البلاد ¹³⁵ .

كان أحمد بن القاضي من الرجال الجزائريين السياسيين تولى القضاء بجاية وهو أكبر علماء الشريعة الإسلامية ، كما كان ملما بالرسائل العسكرية وقد كان إلى جانب عروج في حصار قلعة بجاية كما أنه عاش الأحداث السياسية للبلاد ، بعد أن احتل الإسبان بجاية خرج ابن القاضي منها فعينه الحفصي واليا على عنابة في 1511 م ، ومنها انتقل لإمارة جبل كوكو التي اتخذها عاصمة له ، وهي واقعة على بعد ثمانية كيلومترات من عين الحمام بقبيلة آيت يحيي ¹³⁶ .

تحالف ابن القاضي مع الأمير الحفصي* ، ورجع إلى قلب القبائل على رأس جيشه ، وأطلق تصريحاً يدعوا فيه كل الزواوين لحمل السلاح و الالتحاق به لمهاجمة مدينة الجزائر ، وجمع خير الدين قواته دون تردد ودون أي تأخير ووقف أمام العدو الذي قابله في سهل أيسر حيث التحم الجيشان في معركة حامية الوطيس ، وأول من تلقى ضربة الإنكشارية هم التونسيون حيث تراجعوا إلى اليسار على كل مرتفعات فليسسه أم الليل حيث تبعثهم الجيوش التركية

¹³⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 211 .

¹³⁶ عبد الحمدين بن أشنهور : المرجع السابق ، ص ص 107 ، 108 .

* كان ابن القاضي من أنصار خير الدين وما نستدل به أن سلطان بني حفص بعث رسالة إلى ملك جبل كوكو ابن القاضي يقول له فيها أن يثور هو ومن معه ضد خير الدين ، فرد عليه قائلاً : « يا عجب أي شيء فعله معك خير الدين من الشر حتى تكتب لي فيه بمثل ما كتبت فإني لا أقدر على خيانتة و لا يساعديني قلبي على فعل المكر به فقد رأيت في أيامه من وفور الجاه وبسط اليد وفور الحشمة وليس الحلف الجيد وانتقاء السلاح المصوب وركوب الخيل المسومة مالم أراه قبل دولته فاقطع طمعك مني فإني لا أتبعك على ما تريد ولا يحصل مني ندم إن شاء الله ، وأن أبي كان من أهل الخير و الصلاح وأخبرني في جملة رؤياه أنه سوف يأتي رجل إلى هذه الناحية في وجهه خيال ، واسمه مركب من ثلاث حروف ليملك إقليم الجزائر وهو منصور على جملة من توجه إليه فإن أدت أنت أن يثبت ملكك فطأطئ له الرأس وأرخ له العنان وساعده على ما يريد ... » أنظر مجهول : غزوات عروج و خير الدين ، ص 45 .

إلى هناك ، لكن ابن القاضي العارف لطبوغرافيا بلاده وحماس جنده ، لم يترك هذه الفرصة تضيع من يده ، وعليه أعطى أوامره وبخطة ماهرة حاصر جيوش خضر وهزمها¹³⁷.

إنها مذبحة حقيقية فجيوش خضر قد هزمت تماما وهذا الأخير أصبح في خطر كبير ، وهو يريد أن ينجو بنفسه ويصل إلى مدينة جيجل حيث التجأ إليها ، وواصل ابن القاضي سيره إلى مدينة الجزائر تغمره نشوة النصر وحاصرها ، وكل هذه الأحداث كانت عام 1520 م حسب اتفاق كل المؤلفين و الرواة عن المصادر¹³⁸. كان خير الدين قد بعث برسالة إلى سلطان تونس محرض ابن القاضي حل يبعث له المكاتيب حتى صار حاقدا عليه ، وقال خضر مخاطبا سلطان تونس : «إني ألومك على هذا الفعل الذي صدر منك ، هل أخذت من يدك شيئا من البلاد أم لحقك مني ضرر على هذه الأفعال التي تفعلها بي ، إن مثل ما قمت به لا يفعله إلا أهل النفاق ، فأعرض عنه سلطان بني حفص ولم يجبه»¹³⁹.

ويالها من فاجعة لحقت بجند خير الدين ، فكان العرب إذا وجدوا تركيا في الطريق قتلوه ، دون رحمة ولا شفقة ، واستمر حصار المدينة حتى لحق الشتاء ومل ابن القاضي ، وكاد يرجع إلى بلاده لكن جنده رفضوا ذلك وأصروا البقاء وهو معهم ، ولم يكن باليد حيلة فقر العرب مصالحة الأتراك ، فبعث ابن القاضي بكبار قومه ومشائخهم إلى خير الدين يطلبون منه وهو يعلم أن باطنه في ذلك غير موافق لظاهرهم ، ولكن لما رأى أهل الجزائر وما هم فيه من الضيق و الشدة من حصار العدو قبل ذلك منهم في الظاهر وركن إليه واشترط عليهم في هذا الصلح أن يردوا إليه الأسرى من قومه الذين تحت رحمة ابن القاضي وأن يدفع إليه سنة مالا مقررا يجهزوا له في كل شهرين قطعة منه فوافق العرب على هذه الشروط¹⁴⁰ ، و بعد أربعة أشهر تمرد ابن القاضي من جديد وأرسل جيشا إلى الجزائر قدم عليه أخاه فوجه خير الدين جيشا لرسم لقاءهم فكانت الهزيمة على جيش العرب ، ثم وجه جيش الجزائريين إلى الجهة الشرقية لإنفاذها من ابن القاضي وأمر عليهم رجلا من خواصه عرف في مصادر التاريخ بقارة حسن فاسترجع بلادا كثيرة وقوى أمره ، ثم إن الزعيم البربري دس في أهل البلاد ومشائخها الرجوع عن حلف خير الدين فرضخوا له ، ولما وصل الخبر إلى بربوس استدعى الفقهاء وكلمهم في ذلك فتبرأوا منه ، وقد كان خير الدين قد ابغى العلماء أن اجتماعا سوف يكون الليلة بدار أحدهم ، وان اجتماعهم فيه مضره لكم و لنا ، فقالوا و الله لا نرضى بمثل هذا ونحن سوف نتأكد من هذا الأمر ، وكان قد أبلغه أحد جنوده¹⁴¹.

¹³⁷ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 43 .

¹³⁸ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 44 .

¹³⁹ مجهول : المصدر السابق ، ص 51 .

¹⁴⁰ المصدر نفسه : ص ص 51 ، 52 .

¹⁴¹ مجهول : المصدر السابق ، ص 53 .

صار الفقهاء والجنود قاصدين ذلك المنزل ؛ ليكتشفوا أن ما قاله خير الدين حقيقة ، وليس افتراء فدخلوا وقالوا لهم لما أنتم مجتمعون ، أتريدون أن تتفرق الأمة بعد شملها وأخذوا يعطونهم الدلائل على عدم جواز التخلي عن الأمير الناصر وأنه مخالفة لشرع وذكرهم بقوله عز وجل : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم "142 ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من فارق الجماعة قيد شبر فمات إلا مات ميتة الجاهلية »143 ، ولكنهم رفضوا كل ما قالوه لهم ، ولما رجع القوم إلى خير الدين واخبروه أن العرب جاهزون لقتاله بعد أن لعب بهم الشيطان ، فجهز على الفور العسكر ليلاً وخرج العامة في عصر اليوم الموالي جماعات بلا قائد ، وتفرق عليهم الجند ففروا هارين خائفين بعد أن أدركوا أنه لا قبل لهم بجيش له فنون الحرب كلها في البر والبحر ، وأمر بعدها الأمير خير الدين سكان المدينة بفتح متاجرهم و البيع و الشراء ، بالرغم من أن جنده* ، كانوا يريدون قتل سكان المدينة عن بكرة أبيهم ، إلا أن خير الدين رفض و قال لهم : « كيف نقتل أهل المدينة كلهم وفيهم ا برياء ... »144 .

لقد وصفت الكتب دخول خير الدين إلى الجزائر ، فاحتفل سكان المدينة بهذه العودة ، ذلك أن دخوله كان بمثابة فتح وتحرير لها ، السياسة التي قام بها ابن القاضي جافة وقاسية ، وهي معاملة جبلية لا تعبر عن ثقافة الشخص و مكانته العلمية*145 ، غاب خير الدين عن المدينة ثلاث سنوات* ، ورجع إليها في اليوم الذي خرج فيه ، فأعاد تنظيم شؤون الدولة وكون جيشاً قوياً وأحسن تجهيزه ، وتمكن في فترة وجيزة من أن يكون دولة قوية صاحبة السلطة والنفوذ في البر و البحر ، وبدأ يستعد لتحرير المناطق التي احتلها النصارى أثناء غيابه في جيجل.146

تيقن خير الدين أن ابن القاضي وما كان قد كونه من حلفاء سوف يثورون من بعد مقتله ، وهو ما كان فعلاً فقد تولى الحسين أخ ابن القاضي الزعامة القبيلية ، ولكن هذا الرجل وضع يده في يد خير الدين ، وأول ما قام به هذا الأخير ، هو محاربة قارة حسن بشرشال ، فلما سمع هذا الأخير بقدوم بربروس ، هذا الأخير تحصن مع 13 رجل لبعض الحصون ، أما بقية رجاله فقد فروا لخير الدين طالبين منه العفو وراجين منه الحمية ومجاهمة قره حسن ، واخبروه عن المكان الذي يختبئ فيه الخائن ، وذهب خير الدين بجيوشه للإمساك به ، فلما اقترب من مكان تواجده ، تقدم ثلاثة عشر عنده وطلبوا عفوهم ، ثم التفت هو لقارة حسن وقال له : « يا أخبت الحلق وأسود

142 سورة النساء ، الآية : 59 .

143 البخاري : الجامع الصحيح المختصر ، ط3 ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، بيروت ، 1987 ، ج6 ، ص 2588 .

* كان لخير الدين في كل الأحوال رجال يعتمد عليهم ، ولكن لحد الن تمت خيانات كثيرة مثلما حدث مع قارة حسن .

144 مجهول : المصدر السابق ، ص ص 54 ، 55 .

* يشير عبد الرحمن جيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام ، ج3 ، أن الأستاذ محمد عبد الله عنان قد عثر على وثيقة خيانة تحمل اسم محمد ابن القاضي ومؤرخة في سنة 1542م ، وهي بمثابة حلف بينه وبين النصارى الإسبان وخص بما الإمبراطور شارلكان يحثه فيها لقتال الأتراك وإراحة الناس منهم .

145 عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 49 .

* تشير بعض المراجع أن أخوال ابن القاضي هم الذين قتلوه وهذا ليستريحوا من فتنته وحرابه المتكررة .

146 مجهول : المصدر السابق ، ص 63 .

الوجه أي شيء فعلته من القبح ، وماذا فعلت لك حتى تكافئني بالخروج عن طاعتي ،» وكان خير الدين هو الذي عينه على بعض أقاليمه ، وأكرمه وأعطاه الإجازات ، فأمر ببروسة بسرعة على قتله هو ومن معه ، ولما انتهى من ذلك أقام أياماً بشرشال ، ثم رجع إلى مدينة الجزائر ، ونشر حكمه في البلاد ، وكان ساعده أنصاره ومجموعة من خير القواد في ذلك * 147 .

ب- رجوع خير الدين إلى الجزائر ومؤامرة أبو عبد الله الزياني

وفي تلمسان بلاد بني زيان ، لما يئس عبد الله* من رجوع خير الدين ، قام بضرب السكة على اسمه ، وصرف الخطبة عنه ، وطلب من أخ ابن القاضي مساعدته للقضاء على بربروس ، لكن لما سمع خير الدين بهذا كتب إلى الزياني يهدده مما ينتظره من عقاب ، لكن عبد الله لم يهتم له ، وجمع أهل مدينة تلمسان وخطب أمامهم ، وحرصهم على خير الدين الذي قال أنه يرغب في الاستيلاء على مملكة أجدادهم ، وقرر في النهاية محاربة خير الدين ، وفي هذه الأثناء كان أحد أبناء عبد الله قد فر إلى بلاد الجزائر ، خوفاً من عاقبة حرب أبيه ، ولما وصل إلى المدينة رحب به غاية الترحيب ، وبعد مدة خرج جيش عبد الله لملاقات جيوش خير الدين ببروسة. 148

ويبدو أن الملك هذا قد تصالح مع النصارى وإلا كيف يمكنه معارضة الرجل الذي أعطاه ملكاً وأرجعه إلى منصبه وعرشه بالرغم من تجاوزاته الماضية* ويشير ليبيريجيا أنه بعث رسالة إلى عبد الله للتحالف مع النصارى ضد خير الدين ، وقطع الطريق أمامه ، وهذه الرسالة مؤرخة في 09 شهر جوان 1529م ، ولكنه فعلاً تمكن من كسب ود عبد الله ، والملفت للانتباه أن الملك قد ولى عن النصارى بسبب فتح خير الدين حصن البنيون ، ولجأ إلى ابنه محمد وهذا للتأليه على أبيه ، وكانت بعثت زوجة شارل كان برسالة إلى هذا الابن* تحث على معارضة أبيه وكان ذلك في 23 فيفري 1531م . 149 وكان قد بعث بأموال - عبد الله - وهدايا ثمينة إلى خير الدين تأكيداً على الصلح والعفو عنه ، فما كان من خير الدين إلا أن قبل ذلك ، وكان من جملة ما حصل عليه خير الدين غفي هذه الفترة

* ملاحظة هامة : لقد استعان خير الدين خلال عملياته العسكرية بمجموعة من القادة الأتراك وعلى رأسهم طورغود أودارجوت ، وفي المراجع الفرنسية بـ Dragut .

147 أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 214 .

* تولى عبد الله الحكم مكان أخيه مسعود المخلوع الذي وضع فيه خير الدين كل ثقته لكنه خانته في الأخير .

148 مجهول : المصدر السابق ، ص 66 .

* ظلت حكومة بني زيان في فترات الأخيرة عرضة للخيانة والفساد ، وهذا ما عجل في سقوطها .

* نلاحظ من خلال الدراسة أنه كيف يقوم النصارى في عمليات التحريض ، فإذا لم ينجح مصيرهم مع الآباء يلجأون إلى الأبناء ، وهو ما حدث كثيراً خاصة مع هذا الابن العاق محمد ضد أبيه عبد الله .

ثلاثين حملا من الفضة كل سنة ، ورجع إلى الجزائر وحاول خلق جو من الهدوء و السكينة في البلاد¹⁵⁰ وأما مصير مملكة بني زيان فقد ظل النصارى يبعثون برسائل الدسائس والتحريض فمرة للابن علي أبيه وتارة أخرى إلى السكان و القبائل خاصة¹⁵¹.

ج - موقف السلطان الحفصي محمد ابن الحسن:

لقد خلف إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية اضطرابا في أوساط بني زيان بتلمسان وبني حفص بتونس و الوطاسيين بالمغرب الأقصى ، خوفا من امتداد ملك خير الدين عليهم وشموله لكامل بلاد المغرب فبادر سلطان تونس بتوجيه كتاب لسلطان تلمسان يقول له : « أنظر إلى مملكة الأتراك كيف استقرت في الجزائر ، وأن خير الدين إن دامت أيامه وطالت في المملكة أعوانه فإنه سيستولي عليهما ، فأنظر لنفسك ، فإن هذا الرجل قد فتح عمالة الجزائر ، واستولى على مدينتنا طائفة من العسكر الذين كانوا يغزون معه البحر ، فتدارك هذا الوضع قبل أن يتسع ، وأكون أنا وأنت يدا واحدة ، وقد ظهر لي أن تضرب بين محمد علي وخير الدين وأضرب أنا بين ابن القاضي وخير الدين ، فإذا دخل هذان الرجلان في أيدينا كان لنا جميع ما نريده ».¹⁵²

لقد ألب بنو زيان و بنو حفص العرب على خير الدين مقابل أموال طائلة ، لكن هذا الأخير خرج في الجهة الغربية وحاربهم وأعادهم لطاعته ، وكلما أعده السلطان الحفصي لم يصمد أمام خير الدين وجيشه النظامي ، كما بعث الرجل إلى أشياخ العرب مكاتيب يدعوهم فيها إلى خلع سلطان تلمسان وبيعة أخيه المسعود 1519م ، تمت نفوذ الأتراك ، ولما عاد خير الدين إلى الجزائر حاول هذا الأخير الخروج عن طاعته فطلب مساعدة الإسبان بوهران ، فوجه خير الدين كتابا يلومه فيه ويخوفه عاقبة أمره ، وجهز جيشا لمحاربتة ، ولما سمع الرجل الهارب دعر وبعث أحد الرجال الصالحين المقربين لخير الدين يقول له فيها على لسانه أنه نادم على ما فعل ويود لو يحكم تلمسان من

¹⁵⁰ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 56 .

¹⁵¹ المرجع نفسه ، ص 56 ، 57 .

¹⁵² مجهول : المصدر السابق ، ص 40 .

جديد¹⁵³، ولما أوصل الشيخ الجليل الخبر إلى خير الدين قال له : «إن هذا الرجل قد رسخ الكفر في صدره ، وهذا حال ملوك تلمسان لا يقرون الخير ولا يشكرون على النعمة ، أنظر لأخيك المسعود كيف أعتته وأوصلته إلى الحكم وبعثت له بالعسكر ، فلما نشبت مخالفته بما أنكر الإحسان ، واستعان بالإسبان على حربنا ، ولأجلك أيها الشيخ اقبل هذا العذر الذي أعترز به الخائن وأتجاوز عما فرط منه»* ، فبعث له خير الدين ليدخل المدينة - الجزائر - ويتفاوض معه على أمر تلمسان لكنه أبى الدخول خشية من أخيه المسعود الذي يترصده في الطريق وطلب منه خير الدين أن يساعده على نصرة المسلمين وإعلاء كلمة الله ومن ثمة يعينه على فتح مدينة مستغام وبعد ذلك يتفقان على شأن تلمسان¹⁵⁴.

وقع الاتفاق بين بربروسة وملك تلمسان على تحرير مستغام ، حيث جهز خير الدين ثمانية وعشرين جفنا بجميع ما تحتاج إليه من العدة وعدد من الرجال ، وجهز محلة*، عظيمة في البر فيها عساكر كثر وعزم على حصار المدينة براً وبحراً¹⁵⁵، وكان خير الدين قد فتحت له المحلة التي وجهها صوب مدينة مستغام وافته بالنصر ودخلوها واستخلصها المسلمون من يد صاحب تلمسان المسعود ، فلما استقرت على ملك خير الدين خرج إليها الملك مولاي عبد الله الزياني ودخل إليها ، فلما سمع بذلك خضر سر كثيراً ، ولما انتهت المحلة من عملها توجهت صوب قلعة بني راشد واستخلصتها من يد المسعود ومنها توجهت إلى تلمسان¹⁵⁶.

ومضمون رسالة بعثها خير الدين إلى جيوشه لما انتهى أمرهم وتعيينه لملك تلمسان قائلاً لهم فيها : «إني قد جعلت مولاي عبد الله سلطاناً على تلمسان ، فاخلعوا عليه خلعة الملوك ، شرط أن تكون الخطبة والسكة لمولانا السلطان الأعظم سليمان خان » ، فقبل أبو عبد الله بهذا وطلب من جند خير الدين أن يبقوا معه خوفاً من غدر المسعود ، وكان عددهم مقدراً بـ 150 جندي ، ، ولما سمع خير الدين بعد فوات الأوان بتأمر سلطان تونس مع ابن القاضي

¹⁵³ المصدر نفسه ، ص ص 44 ، 46 .

* مضمون رسالة الرجل المارب سلطان تلمسان فيها الكثير من الخوف و الندامة وهي تعبر عن مدى رهبة الملوك من خير الدين ومضمونها : « إن خلصني خير الدين وردني إلى ملكي أكون عبداً من عبيده يتصرف في كما يشاء وأنا نائب إلى الله من مخالفته و الخروج عن أمره .» مجهول : المصدر نفسه ، ص 45 .

¹⁵⁴ نفسه : ص 47 .

* محلة : وهو الجيش الذي يخرج مرتين في السنة نحو الجهات النائية و الصعبة لجمع الضرائب تحت حكم الآغا .

¹⁵⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 226 .

¹⁵⁶ مجهول : المصدر السابق ، ص 48 .

وابن علي و الملك الزياني* ، بعث يلومه ويعاتبه ويتهمه بالنفاق ، ثم وجه قوته إلى الناحية الشرقية ، وتقابل مع جيوش بني حفص وهزم الملك التونسي شر هزيمة .¹⁵⁷

وكان السكان أيام حكم المسعود لهم ومواجهته لخير الدين قد بعثوا برسالة يعبرون فيها عن تمسكهم بمبادئهم ، ونستشف منها أن أهالي المدينة كانوا لا يريدون ضرراً بإخوانهم المسلمين من الأتراك لولا أن تهجمات المسعود عليهم وسيطرته أرغمتهم على ذلك فقالوا له : «إننا لا نحاربكم بل نحن طائعين لأمر الأمير خير الدين ، ولن يوليه علينا أحد ، إنما أطعنا هذا المسعود ، ظاهراً وخوفاً منه .»¹⁵⁸

نجدته لهاجري الأندلس: كانت القوة العسكرية المجهزة قد توجهت إلى الأندلس وهذا لمساعدة المهاجرين*، المغلوبين على أمرهم للمرة الثانية بتجويزهم إلى بلاد المسلمين في المغرب وحفظهم من العدو ، فأخذ يحمل على سفنه أكبر عدد ممكن من هؤلاء المستضعفين الفارين بدينهم ، و ظل ذهابه وإيابه في البحر سبع مرات متتالية وأنقذ ما يزيد عن سبعين ألف رجل ونزل بهم مدينة الجزائر وسهل متيجة¹⁵⁹ .

وكان من المهاجرين من نزل بضواحي القصبه ومنهم من نزل بدلس ، ومنهم من استوطن بتلمسان ووهران وكان فيمن نزل بتلمسان الأمير أبو عبد الله محمد الثاني عشر* وبها قضى بقية حياته¹⁶⁰، وفي المرة الأولى من رسالة الأندلس* ، إلى خير الدين أبلغوه ما وقع لهم من أعداء الله فدخلت قلبه الحمية إلى الإسلام وأرسل ستة وثلاثين جفنا القوا فيها بجيوش النصارى الإسبانية التي كانت تلاحق الأندلسيين الهاربين إلى الجبال ، ووقع بينهم قتال عنيف ومنح الله خير

* الظاهر في هذه الفترة أن بعض الحكام ذوي المسؤوليات لا يهتمون إلا بما يكون في مصلحتهم فتجاهلوا مصالح البلاد و العباد ومبدأ الجهاد ، فكان النفاق وسيلة سهلة و التولي حينما شاءوا.

¹⁵⁷ المصدر نفسه : ص 49 ، 50 .

¹⁵⁸ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 227 .

- : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها **p** وحكم الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإيمان فريضة إلى يوم القيامة ، وجاء في حديث الرسول - *

- : « لا يقيم أحد في موضع يعمل فيه بغير **t** شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » . وجاء في قول الإمام مالك بن أنس -

حق... أنظر جمل فنان : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ، ص 41 .

¹⁵⁹ مجهول : المصدر السابق ، ص 226 .

* أبو عبد الله محمد الثاني عشر بن سعد ملك من ملوك غرناطة الملقب بالزغل ومعناه الفتى الغض الشاب ، وعمه عمر أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر دفين تلمسان ، الملقب بلبوييلد والذي قالت فيه والدته : أبك مثل النساء ملكاً مظلماً يحافظ عليه مثل الرجال .

¹⁶⁰ المقري التلمساني : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 6 ، تحقيق : محمد البقاعي ، ط 1 ، 1998م ، دار الفكر بيروت ، ص 279 .

* لقد عان أهل الأندلس وذاقوا الويلات من خلال ما قامت به محاكم التفتيش حتى أن البعض خاف على دينه فمارس التقية وهي إظهار الكفر وكنمان الإسلام ، وقد حكمت هذه المحاكم بقتل كل من هو على دين الإسلام .

الدين النصر¹⁶¹، وتشير المصادر الأندلسية ومنها نوح الطيب للمقري ، أن النصارى قد تهادوا في غيهم وطغيانهم كما شددوا في عملية التنصير حتى أنهم أحرقوا كل من هو مسلم ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد.¹⁶²

تنظيماته العسكرية: ان الحديث عن جيوش خير الدين الإنكشارية ، يدعو إلى التعرّيج إلى معرفة نظام السفن وكيفية تنظيمها ، فكانت السفن هي الآلات الحقيقية للعمل إذ يقومون بفحصها من حيث النظافة و النظام والترتيب وهم لا يفكرون في شيء آخر سواها ، إن أشرعة سفن خير الدين كلها صغيرة السعة وتعتمد على السرعة وضعف تسليحها ، و شملت أنواع السفن مركب ذو ثلاث صواري يعرف بالشبك ، وثلاثين مجدافاً وتتسع إلى أقل من 200 طن ، محملة بطاقم يتكون من 30 - 200 رجل ، ومجهزة بأربعة إلى أربعة وعشرين مدفعاً ، والفينة الحربية الصغيرة يوجد فيها من 12 إلى 19 مقعد ، ومن 20 إلى 130 رجل ، ومن 2 إلى 10 مدافع ، وسفينته شرعية بصاريتين وهي سفينة انتقالية بين السفينة ذات المجاذيف و السفينة الشراعية ، بها صاري واحد فقط و 16 مجدافاً حيث يوجد رجل واحد على كل مجداف ، ويستعمل المجداف أكثر من الشراع* .¹⁶³

كان يسود السفن نظاماً حديداً صارماً ، فالمجدفون كانوا مربوطين إلى أماكنهم ولا يتحركون أثناء عملية التجديف ، ولا يسمح لأحد بالتحرك من مكانه ، وهذه الخفة والسرعة هي التي ستشكل ثروة طائلة للجزائر، وروى أحد الأسرى قائلاً : « ونحن مشينا بخفة فائقة مثل سرعة البرق ، وعندما هوجمنا كنا نسير باتجاه الريح دون أية عرقلة أو عياء ، كما أن المدافع القليلة جعلت سير السفن أكثر سرعة ، وإن وجدت بكثرة سارت ببطء وتراست المدافع جنباً إلى جنب ، حيث لا يبقى مكان لتحريكها إلى الخلف ، وكان ظهر السفن مبللاً بلجج البحر ويحدث الهجوم ثم يليه التلاحم بالأسلحة البيضاء ، وبعد العودة من الغزو يتم فحص السفن بكل عناية»¹⁶⁴

لقد كان تدخل بربروسة ومن ناصرهم من الأتراك وأندلسيين وأهالي البلاد لتغيير وضعية بلاد المغرب العربي ، ولتمكن النصارى من تنفيذ مخططاتهم وهو تسيح الشمال الإفريقي ، وفي هذا النطاق نعتبر وبحق أن

¹⁶¹ جمال فنان : المرجع السابق ، ص 40 .

¹⁶² المقري التلمساني : المصدر السابق ، ص 275 .

* لا يرفع قادة الجهاد البحري أشرعتهم حتى لا يراهم العدو من بعيد ، وكما يقولون يقطعون أذرع الريح في أذرع المسيحيين ويجرون بشكل عادي ، كما يقتضي فهن القراصنة ، ويندفعون بكل قوة ، سواء أكانت الريح ساكنة أو عكس خط سيرهم ، ولا يستخدمون الشراع في طريق عودتهم وأثناء تجوالهم في انتظار فريستهم ، وتتألف الحصاة اليومية من طعام المجدفين من ثلاث قطع بسكويت وكمية من الماء مخلوطة بالخل ، وهناك مجدفون يمتلكون قوة لا كمثلها ، منهم خرج معظم رياس بحر الجزائر ، وكان فصل الراحة من التجديف لأنه لم تكن هناك رواتب ، فكلما غنموا أكثر زادت حصصهم أكثر ، وقس على ذلك في كل الحالات .

¹⁶³ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 52 .

¹⁶⁴ المرجع نفسه ، ص ص 52 ، 53 .

الجهاد البحري الجزائري هو عمل شرعي وخلالها تبين لهم أنه الحل الوحيد للدفاع عن البلاد والذود عنها وعن أهلها وطبع هذا الصراع منذ البدايات الأولى للوجود العثماني بكل أبعاده العالمية ، فاندرج ضمن إطار النزاع بين القوتين البحريتين في تلك الفترة القوة الإسلامية و المسيحية¹⁶⁵، وتمكن الجزائريون خلال هذه الفترة التي كان خير الدين قد ذاع صيته في أرجاء المتوسط و البحار ورهبتة الدول النصرانية ، وتمكن قياد أساطيله التي أرهبت ديار الكفر من الوصول إلى ما تصبوا إليه ، فقد شنت عدة غارات بقيادة ايدن رايس و صالح رايس عام 1529م ، بأمر من خير الدين ، وقد غنموا خلالها وتمكنوا من العودة باللاجئين الأندلسيين ، ما ساعد البحرية الجزائرية وقوى شوكتها ونشاطها ، التحاق الكثير من البحارة الأتراك و الأندلسيين بالجزائر للعمل في البحرية وكذلك مجيء العديد من الأوربيين قصد الحصول على غنائم وأرباحا ، وبعضهم وقع في الأسر واعتنق الإسلام ومكث بالجزائر¹⁶⁶، استعمل البحارة الجزائريون لعدة أنواع من السفن وهي سفن صغيرة تتميز بالخفة و سرعة الحركة ، وقد أفادهم كثيراً في مسألة الفرار ، عكس سفن النصارى و البيزنطيين خاصة ، فقد كانت ذات حجم كبير صعبت في مسألة هروبهم أو في مسألة هبوب الرياح ، ونذكر أنواع من المراكب التركية ، فوجدت الغليوبات و البريكات و **BRIGANTINS et GALOTES** ، و السفن المستديرة عرفت بصنف الغليرة **GALARES** وبفضلها وصلوا إلى كامل بحار العالم ووجدت الشبكة ، فوصلوا إلى سواحل ماديره **MAERA** عام 1617م، وشواطئ إنجلترا عام 1631م .¹⁶⁷

تحرير حصن البنيون 1529 م

لقد كان البنيون الذي أنشأه بدرو نافار على الجزر العظيمة المسماة سخفة ، كان ذلك الحصن مجهزاً بالأسلحة والجيوش ، كان شوكة في حلق الجزائريين ، كان الجند فيه يفتشون كل صادرات و واردات البلاد ، وقطع صلة الجزائريين بالبحرية ، وتعددت أذية النصارى للأهالي وتكرر عدوانهم عليهم ، وكانوا يطلقون النار على المنارات عند كل أذان صلاة ، لقد نهبهم خير الدين عن عملهم هذا فلم يفعلوا ، لقد يئس من محاولاته السلمية وأخفق من إنذاراته وتهديده للإسبان ، وتجهز أخير المنازلة القلعة بأنواع السلاح الثقيل .¹⁶⁸

¹⁶⁵ المهدي بوعبدلي ، وناصر الدين سعيدوني : الجزائر في التاريخ - العهد العثماني - ، وزارة الثقافة و السياحة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 م ، ص 43 .

¹⁶⁶ المرجع السابق ، ص 43 .

¹⁶⁷ نفسه ، ص ص 43 ، 44 .

¹⁶⁸ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 52 .

أسرع خضر لنصب مدفعية مقابل قلعة البنيون ، وكان منزعجا وغاضبا لانشغاله بتجديد ذخيرته من البارود و العتاد الحربي الذي تم استهلاكه نظرا لكثرة عملياته الحربية السابقة .¹⁶⁹

قام الرجل بإصلاح مدفعيته وإصلاح القطع الفاسدة بتحديدها وتطويرها من جديد مما سيعطيه الفرصة في مهاجمة القلعة في في ماي 1529م ، تظاهر اثنان من سكان مدينة الجزائر بدخولهم المسيحية وذهبوا إلى القلعة حيث كان سكانها في استقبالهم وأنزلوهم منزلة حسنة ، وأسكنوهم عندهم ، وفي إحدى ليالي ممارسة القداس توجهوا إلى أعلى البرج وأعطيا إشارة إلى مدينة الجزائر إلا أن إحدى الخادومات كشفت أمرهما ، فعلقوا في شرفة مقابلة للمدينة ، وهذا القرار زاد من غضب خير الدين وقرر مهاجمة القلعة ، و كان قبل هذا قد أرسل مفاوضا عنه حتى يجنبهم الانتقام و الأخذ بالتأثر لكنهم رفضوا التفاوض ، وأمام هذا الرفض المنتظر من زعيم القلعة مارتان دوفارقاس فتح خير الدين نيرانه صوب القلعة¹⁷⁰ ، لقد كان ببروس رجلا داهية ورجل حرب ، فقد وضع خطة تمكن من خلالها من تمويه العدو وخديعته ، فقد أذاع خبر بين الناس حتى يوصلوه إلى سكان القلعة ، وهو أنه سوف يخرج إلى الجهاد و الغزو على سواحل دول أوربا ، ولكنه ما إن وصل إلى سواحل تمنفوست ، وهو المكان المعروف ببرج البحري حتى توقف وانتظر نزول الليل ، حيث أعاد المدفعية وجيوشه ونصبها على بطاريات* الحصن التي تطوق المدينة وبدأ في قصف المدينة دون انقطاع ، وإضافة إلى عمل المدفعية نجد أن عروج لم يهمل الجانب البحري وتخوفه من الغادرين أو أية حمية اسبانية فقد حمى ظهره بأسطول بحري طوق الأساطيل النصرانية كي لا تفر¹⁷¹ ، بات الرجل ليلة كاملة راكعا وساجدا لله عز وجل مبتهلا وراغبا منه أن يعينه على فتح ذلك الحصن ، فلما كان صباح تلك الليلة وهو يوم الجمعة أمر المدافع أن تقذف ما بها من بارود ، وكان اقرب إليه من سائر الجهات ، رمى بالمدافع ذلك المدد القادم لمساعدة سكان الحصن ، وقصف النصارى مآذن المساجد حتى هدموا صومعة الجامع الأعظم ، وأتى الهدم على دور كثيرة ، فلما صلوا الجمعة توكلوا على الله عز وجل وركب عسكر خير الدين القوارب وهاجموا عليه من كل ناحية .¹⁷²

¹⁶⁹ Digo du hido : PO-Cit , p 42 .

¹⁷⁰ كورين ، شوفاليه : المرجع السابق ، ص 46 .

* نقصد ببطاريات الحصن : الأبراج التي تبني عليها الحراسة ، وهي على شكل أسطوانات في كل الحالات و في أي الحصون عبر التاريخ ، وبها فوهات لإخراج المكاحل أو المدافع الصغيرة .

¹⁷¹ محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 34 .

¹⁷² مجهول : المصدر السابق ، ص 66 .

لقد ظلت المدفعية تضرب دون استسلام لمدة خمسة عشر يوما ، أسقطت من خلاله البرجين الموجودين في القلعة ، وقتلت جزءا كبيرا من المدافعين عن القلعة ، ولزيادة سلاح مدفيعته لم يتردد الجزائريون في الاستيلاء على أسلحة السفن الموجودة داخل الميناء ومن بينها سفينة فرنسية للإخوة جُون ، كانت في طور الإصلاح و الترميم و التي لا علاقة لها في هذه الحرب¹⁷³ ، دخل الجزائريون ليلا إلى الحصن وقفزوا إلى أرضه بينما كان جند القلعة في راحة من جراء المعارك المتعبة وانقضوا على من في القلعة¹⁷⁴ ، كان الهجوم من باب الواد وفتح الحصن رسميا في 27 ماي من يوم الجمعة 1529م ، وتمكن المسلمون من القضاء على كل من بداخله فقتل 50 شخص وأسروا منهم 90 رجلا و 25 امرأة ، وكان من بين الأسرى رئيس الحملة الإسباني دون مارتان (Don Martin Fargas) ، وما إن حل عام 1530م ، حتى كان خير الدين قد افتك القلعة رسميا¹⁷⁵ وقتل أهلها كلهم¹⁷⁶ .

لقد أمر خير الدين بدك الثكنة عن آخرها حتى لا يبقى لأهلها مطمع في العودة إليها مرة أخرى ، واستعملت أنقاضها في ضم تلك الصخور إلى الميناء وبناء جسر والرصيف الممتد بين المدينة وبرج الفنار* ، وتمكن بعدها جند خير الدين من الاستيلاء على سفينة حربية كانت قادمة لإنقاذ أهلها ، وتمكنت الجزائر من أن تصبح في مصاف الدول القوية بعد أنقاضها، وتأسست بعد هذا ما يعرف نيابة الجزائر وأصبحت كل الضفة الغربية من هذا البحر المتوسط بحيرة عثمانية واستعمل اسم الجزائر* للتعبير به على إقليم المغرب الأوسط وكان لشدة الخوف عليها من الأمواج تم النشاء رصيف المول الطويل سنة 939هـ الموافق ل 1532م .¹⁷⁷

انتصار البيلرباي وهزيمة أندري دوريا 1530 م :

ما كان خير الدين يهنأ بانتصاره العظيم في البنيون 1529م ، حتى انطلقت سفنه إلى ارض اسبانيا بعد أن علم بمحاولة الإمبراطور الإسباني الذي كان ينسج خيوط المؤامرة على مدينة الجزائر ، هذا الأخير الذي اتفق مع أبي حمو ملك تلمسان ، على أن يقوم الطرفان بتوجيه ضربة حاسمة وقاضية للجزائر ، وكان ذلك بتجهيز خمسين سفينة

¹⁷³ Digo du hido : PO-Cit , p 43.

¹⁷⁴ كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 47 .

¹⁷⁵ المرجع نفسه ، ص 48 .

¹⁷⁶ De Gramment : histoire d'alger sous la domination turque , paris , 1887 , p35 .

* برج الفنار : وفيها بني دار مدار قبطان رايس وهي مقر الأمير البحرية أو الإمراية اليوم في الجزائر
* عرف المغرب بانقسامه إلى المغرب الأدنى وهي تونس و الأوسط الجزائر والأقصى المغرب ، وهذا منذ الفتح الأول .

¹⁷⁷ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 50 .

حربية يتبعها ثلاث مائة من حاملات المقاتلين ، إضافة إلى الكثير من المقاتلين المتطوعين و الأمراء الصليبيين و القائد الجنوبي أندري دوريا .¹⁷⁸

وكان الأسطول الجزائري يشمل خمسة عشر سفينة من نوع قالير (Galeres) ، وقد ألقى الرعب و الهلع في نفوس سكان الإسبان وكانت هناك معدات أخرى ، على اثر هذا التحرك بعث القائد الاسباني رسالة إلى خير الدين يدعوه فيها إلى الاستسلام وإلا فعل به مثلما فعل بعروج ، ولكن خير الدين لم يكن بالرجل الذي يرضى بالذل ، فقد رد عليه قائلا : «إن السيف هو الذي سيحكم بيننا على من هو أحق بالجزائر.»¹⁷⁹

تلقى قائد الأسطول أمرا إمبراطوريا بأن يتقدم لمهاجمة الأسطول العثماني وأن يحطمه و يبعده عن الساحل الإسباني ، فاستعد الأميرال " فريديريكوبور - توندوا " أيما استعداد ، وتقدم على رأس أسطول قوامه اثنا عشر سفينة يتبع بها أسطول خير الدين السريع .¹⁸⁰

وتابع توندوا المسلمين حتى عثر عليهم في جزيرة من جزر البليار* ، وهجم عليهم بقوة ، لكن خير الدين وبخبرته البحرية ركز هجومه المعاكس على السفن الإسبانية دون غيرها ، وتمكن من قتل و اسر العديد منهم قائد الحملة ولم تنج من هذه المعركة سوى سفينة واحدة.¹⁸¹

- معركة شرشال 1531 م.

بلغت فرحة الجزائريين أشدها بهذا النصر ، في حين عم الهم و الغم معظم اسبانيا و الدول الخليفة لها ، وكان من نتائجه أن تسلم شارلكان قيادة الأساطيل البحرية ، وكان شارلكان هذا يملك نصف أوربا*¹⁸² ، لم يرض النصرى عن هزيمتهم وعن الخسائر الفادحة التي لاحقتهم من طرف المسلمين الجزائريين وعزموا على تحطيمهم انطلاقا من مراكز نفوذهم في كل من بجاية ووهران والمرسى الكبير ، فبدأ أندري دوريا يعد للحملة في مدينة جنوة*

سليمان مظهر : « بربوس سيد البحار » ، مجلة العربي، ع 307 ، الكويت ، 1994 ، ص 130 .¹⁷⁸

¹⁷⁹ المرجع نفسه ، ص 130 .

¹⁸⁰ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 215 .

* جزر البليار : وهي تابعة للمملكة الإسبانية ، تقع في المحيط الأطلسي تتوسط الحوض الغربي من المتوسط ، بين شماله وجنوبه .

¹⁸¹ سليمان مظهر : المرجع السابق ، ص 130 .

* شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وهو الرجل الذي حكم نصف أوربا ، وضمت ملكيته كل من اسبانيا وبلجيكا وهولندا ، ألمانيا ، النمسا ، ايطاليا ، وخاض الصراع في هذه الفترة الدولة العثمانية في شمال إفريقيا .

¹⁸² عبد الحميد بن أشنهو : المرجع السابق ، ص 118 .

* جنوة : مدينة ايطالية ، وإليها ينتسب أندري دوريا .

منذ عام 1530 م .¹⁸³ في شهر جويلية ينطلق دوريا على رأس 20 سفينة جيدة التسليح ليصل مدينة شرشال قبل طلوع الشمس ، وأنزل بها ما يقارب ألف و خمس مائة بالقرب من المدينة ، وأمرهم ببلوغ الأسرى المسيحيين وتحريرهم و العودة إلى السفن دون أي عمل من أعمال النهب .¹⁸⁴

تفطن خير الدين لزحف الإسبان ، لكنه لم يستطع تحديد هدفهم ، هل يريدون العاصمة الجزائرية أو مناطق ساحلية أخرى ، فجمع أسطوله المكون من أربعين سفينة و استعد للمواجهة ، كانت شرشال هي هدف دوريا ، وكانت من أهم مدن الجزائر* ، واعتقد النصارى الإسبان إنها سوف تكون سهلة المنال وهجموا عليها ما أدى بسكانها إلى الفرار ، في حين تركزت قوات خير الدين في القسبة وبقوا يترقبون الأوضاع¹⁸⁵ ، تفرق النصارى في شوارع المدينة ، هذا ما سهل على خير الدين حصارهم و لم يسمع المقاتلون إلى إنذار قائدهم دوريا ، لما طلع النهار تجمع الترك وانضموا إلى سكان المدينة* وانهاوا على جند النصارى فقتلوا وجرحوا العديد منهم بينما أخذت مدافع المدينة تقصف المراكب البحرية الإسبانية ، وتم أسر من بقي في المدينة الذين خاتم دوريا الفار إلى بلاده ، فوجد أن خير الدين قد عوض الأسرى المحررين بأسرى جدد .¹⁸⁶

وكان هذا النصر إذنا لدخول خير الدين مدينة شرشال ، وتمكن من أن يغنم سفينتين ، اسبانيتين محملتين عتادا* كما كان لهذا النصر أيضا نتائج ملموسة في الداخل و الخارج ، ففي الداخل زاد التعلق الشعب الجزائري وإيمانه بقدره هذا الرجل التركي ، كما كان لهذا النصر آثار ايجابية على سكان تلمسان الذين كانوا تحت سلطة بني زيان الذين طلبوا النجدة من خير الدين لإنقاذ البلاد من احتلال الإسبان ، أما على المستوى الخارجي فقد كان انهزام الإسبان ضربة مؤلمة في الدولة المسيحية جعلتها تعمل على أخذ الثأر وتجهيز حملة قوية لتشتت شمل الدولة الجزائرية¹⁸⁷ ، لقد ذاع صيت خير الدين في البحار ، وأصبح مالكا لزام الحوض الغربي من المتوسط دون منازع ، وألي على

¹⁸³ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، 223 .

¹⁸⁴ جون بولولوف : المرجع السابق ، ص 41 .

* مدينة شرشال : من أهم المدن الجزائرية ، مدينة ساحلية ، حصنها عروج وجهازها بمختلف أجهزة الحرب وكان بها مصنع لعتاد الجيش الإسلامي وآخر للخشب .

¹⁸⁵ أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 224 .

* معظم سكان المدينة - شرشال - أندلسيين هاجروا إليها في فترة الاضطهاد النصراني عليهم في غرناطة .

¹⁸⁶ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 55 .

* عدد القتلى في صفوف النصارى قدر بـ 140 قتيل وحوالي 800 أسير ، وقد واجه الأتراك وحدهم هذه الحملة دون مساعدة سكان مدينة شرشال .

¹⁸⁷ المرجع نفسه ، ص 56 .

نفسه تقويض سلطان الإسبان ودحرهم برا وبحرا ، فاتخذ من جزر هايار HYERES الإسبانية مقرا لأسطوله و من هناك أخذ يوالي غزواته الحربية المتوالية ، وجمع حوله من رجالات البحر أمثال حسن بن خير الدين و طرغوث راييس وصالح راسي و سنان ، وقد غنمت أيديهم الكثير من الذهب وما حملته السفن الإسبانية و البرتغالية العائدة من العالم الجديد - أمريكا 188.

رابعا- لأوضاع مدينة الجزائر خلال حكم خير الدين

ولنخرج قليلا من الأعمال البربروسية الفذة ، ونعرج قليلا على الوضع العام في مدينة الجزائر وخاصة عنصر اليهود ، فقد سمح لهم خير الدين بالإقامة ، ووضع مؤسساتهم تحت الوصاية ، بحيث تم تحديد نشاطاتهم التجارية ، كما أنهم يستطيعون الوصول إلى مراكز عالية بعد قبولهم في المدينة ، كما احترمت ثقافتهم واخبروا على ارتداء لباس يختلف عن لباس العامة الجزائرية ، لأنهم يزدحمون في حارات خاصة بهم ذات كثافة سكانية عالية ، ويمتلك الكثيرون منهم بيوتا خارج هذه الحارات ، وكذلك منازل غنية في الريف ، كما لا يسمح لنسائهن بدخول الحمامات الشعبية ، وهم يأتون في الدرجة الثانية بعد العبيد المسيحيين من حيث تزويدهم بمياه الينابيع ، وزيادة على ذلك فإن هذا المجتمع اليهودي يجب عليه دفع الضرائب للحكومة تقدر بـ 1500 دوبلاس في السنة ، بحيث يدفع كل واحد منهم حسب إمكانياته ، وإذا أراد احدهم الدخول في الإسلام يجب عليه قبل ذلك اعتناق المسيحية ، أي بعد أن يكون قد أكل لحم الخنزير ، ويقبل التخلي عن معتقده حتى يصبح مسلما لذلك فهو يحمل اسم " سلامي " . 189

إلا أن هذه الأقلية تتمتع بامتيازات اقتصادية واسعة ويمارسون حرفهم وصناعاتهم على نفقة المسيحيين تارة وتارة أخرى على نفقة المسلمين ، ويعتبرون على الخصوص الوسطاء الوحيدين فيما يخص العلاقات الدبلوماسية أو التجارية بين أوروبا و البربر ، كما استخدموا في هذه الفترة الكمبيالات و استخدموها في معاملاتهم مع مراسليهم من

188 أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 229 .

189 كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 66 .

كل المدن الأوربية ، وهم يعتبرون أسياذ العالم في جمع الثروات و الأموال ، حيث عملوا على صياغة الذهب و الصيرفة ويقومون بطرق العملة الذهبية و الفضية و النحاسية و لا ينازعهم أحد في ذلك .¹⁹⁰

أما النسبة لمعاملتهم للأسرى فهي تختلف عن معاملة جنود خير الدين ، فقد ظل العبد تحت رحمة السيد يعامله معاملة جيدة ، وإذا اشتكى أي عبد من سيده اليهودي فإن الحاكم خير الدين أو من جاء بعده له أحقية تحرير المأسور¹⁹¹ ، أما هايدو في كتابه فقد أشار إلى تأثير اللاجئين الأندلسيين على المجتمع الجزائري وعلى مدينة الجزائر ، وقد شغلت الجزائر المزدهرة ازدهارا باهرا فكر العالم المسيحي ، فمن بين أعمال خير الدين بما بناء الرصيف الذي جعل الميناء أكثر نشاطا ، وهذا ما سبق ذكره .¹⁹²

خامسا- ترقية خير الدين أميرال البحرية العثمانية 1535م

بعد عودة خير الدين من غزوته في جزر هايار ، وجد دعوة السلطان العثماني تنتظره للمثول أمامه في الباب العالي ، ولكن قبل ذلك كان قد أتى بحسن آغا* من جزيرة سردينية ، وكان مضمون دعوة السلطان أن أوكله مهمة قيادة الأساطيل العثمانية كلها ، وبذلك قلده مهام أمير البحر أي قبطان باشا ، مع احتفاظه برئاسة الجزائر ، وتعود أسباب هذا التقليد إلى اشتداد الحرب بين الإمبراطورية العثمانية و أوروبا خاصة دولة البندقية في إيطاليا و إسبانيا .¹⁹³

وكان حقاً خير الدين يستحق هذا اللقب ، فقد كافأه السلطان جزاء له على انتصاراته العديدة ، حف الرجل بالرحيل ليستلم مقاليد هذه الرئاسة التي كان فاتح ولائها ، فلم يلقب أحد قبله بها .¹⁹⁴

¹⁹⁰ المرجع نفسه ، ص 66 .

¹⁹¹ نفسه ، ص 66 ، 67 .

¹⁹² Diego Haëdo : Op-cit , p 342 .

* حسن آغا : اسمه محمد حسن آغا الطوشي ، كان رجلا عاقلا ، عاملا ، عالما ، صالحا ، عينه خير الدين على الجزائر عام 1533م ، وهو من سردينية ، رباه خير الدين ورعاه ، وتشير بعض الكتابات ومنها حرب ثلاث مائة سنة انه كان عبدا ، ولكن خير الدين جعل منه النائب عنه في دولة أصبحت محل أطماع الغرب ، فهي مهمة لا تليق إلا برجل عظيم يقارب بربوس في كثير من الأشياء .

¹⁹³ محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 47 .

¹⁹⁴ عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 56 .

دخل بربروس اسطنبول على رأس جيش عظيم ، ولما سمع الوزير الأعظم بمدينة حلب بقدوم هذا الأخير ، وقد سمع عن انتصاراته العظيمة ، وسمع بشخصيته التي أرهبت العدو ، بعث رسالة إلى سليم الأول يطلب منه أن يبعث بخير الدين عنده ليتبرك لرؤيته ، فأرسل السلطان خادما إلى خير الدين يقول له : « إن خادمنا بحلب سأل منك الاجتماع بك هناك ، فهل لك غرض في هذا أم لا » ، فأجابه خير الدين قائلا : « حيثما بعثني سيدي السلطان أتوجه لأبي عبد من عبيده » . 195

جهز السلطان لسفر خير الدين وكل ما يحتاجه من سلاح ورجال لخدمته وحراسته ، واستقبل بعدها في حلب استقبالا حارا ، وله منح منصب وزير من وزراء السلطان ، والبس خلعة الوزراء من طرف الديوان ، وركب على متن جواد بسرج مرصع بالياقوت و الذهب الخالص ، وبعد مدة استأذن بالرجوع إلى اسطنبول حيث استقبله السلطان سليمان ، ومسح على رأسه وجعل في عمامته سرهوجا من الذهب ، وأهم عمل قام به خير الدين أن سار على رأس جيش قوامه أربعة وثمانون سفينة واستولى به على قلعة من قلاع الروم وهي " أرتيلية " وعاث فيها خرابا و حرقا¹⁹⁶ ، انشغل خير الدين بحكم منصبه الجديد ، وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للمتوسط ، بينما استمر حسن آغا في منصبه المستخلف عليه نائب بيلريك ، يعمل على قهر القرصنة الأوربية فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن ، وكان قد أربع الغرب حتى أن شارل كان قد لجأ لمعاهدة خير الدين لكن الأمر لم يتم ، هذا الرجل الإسباني الذي كان يأمل دائما في

حلف بربروسة لمواجهة الفرنسيين و العثمانيين المتحالفين ضده ، وعمل أن يفصل شمال إفريقيا عن اسطنبول وهذا الذي لم يستحق¹⁹⁷ . استمر خير الدين في أعماله الجهادية وحقق انتصارات هزت أوروبا ، وجعل من مدينة مرسيلى قاعدة له ومقرا لأسطوله ، وفيها باع خير الدين وصحبه ما غنموه من اسبانيا ، وما زاد في قوة المسلمين انضمام أساطيل فرنسية إليهم ، وجعل خير الدين قائدا عليها ، وأول عمل قام به هو مهاجمة مدينة نيس الفرنسية وطرد حاكمها دوق فاسوا وإعادتها لملك فرنسا ، وبعدها استقر بطولون وجعلها قاعدة ثانية للقوات العثمانية¹⁹⁸ وتابع خير الدين طريقه إلى ألبا* ، واحتلها البطل وغنم ما بها ، كما احتل عددا من المدن الساحلية ومن بينها ليباري ، لقد قاد بربروس حرب الإيمان وحقق فوزا عظيما ، ويحفظ لنا التاريخ برسالة رد فيها على شارل كان : « يجب أن لا ننسى أن الإسبان لم يخذلوا في معركة ، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج ، فإن تماديت كان مصيرك مثلهما » ، فأجاب خير الدين : « سترى غدا وإن غدا ليس ببعيد ، إن جنودك ستتطير أشلاؤهم ، وإن مراكبك ستغرق ، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة » ، وقد توفر لنصر خير الدين ثلاث شروط ، شعب مجاهد في سبيل الله وتطبيق رائع للعقيدة

195 أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 228 .

196 مجهول : المصدر السابق ، ص ص 89 ، 91 .

197 محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 25 .

198 بسام العسلي : المرجع السابق ، ص 166 .

* ألبا : جزيرة كانت تحت السيطرة الإسبانية وحررها خير الدين ، وهي نفس الجزيرة التي نفي إليها نابليون بونابرت .

القتالية الإسلامية ، وقيادة على درجة عالية من الكفاءة ، بذلك انتصر الشعب الجزائري ، وانتصر معهم خير الدين ، وبذلك مارس خير الدين دوره كما ينبغي ووضع أسسا لدولة جديدة عرفت في مصادر التاريخ بالجزائر المحروسة.¹⁹⁹

توفى خير الدين بروسة في 4 جويلية 1545م²⁰⁰ ، و بوفاته - رحمه الله - غاب نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر و البحر .

¹⁹⁹ علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص 232 .
²⁰⁰ -خير الدين ،مذكرات ،تحقيق محمد دراج.